مع الإسلام

بقلم

أبو الحسن علي الحسني الندوي

وكيل ندوة العلماء

بالهند

الثمن : ليرة لبنانية

الطبعة الأولى

١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله تعالى على خير خلقه محمد وآله وصحبه أجمعين.

أما بعد: فهذه المحاضرات التي يجدها القارىء في هذه المجموعة كتبت وألقيت في مناسبات مختلفة، تختلف في الزمان والمكان والعنوان والالوان، وتجتمع في غاية واحدة، وهي إيقاظ الشعور الديني في المسلمين، وإعادة الثقة إلى نفوسهم بمركزهم ومبدأهم وغايتهم في الحياة، ورسالتهم للعالم البشري، وتهيئة النفوس لحمل هـــذه الرسالة، وتبوؤ مركز القيادة والامامة للعالم الحائر الثائر، وتجديف سفينة الحياة الضائعة بين الملاحين العابثين، والركاب النائمين. وقد خوطبت في هذه المحاضرات والمقالات الأمة الاسلامية بصفة عامة

إذ هي الأمة الأخيرة التي اخرجت للناس وصاحبة الرسالة الاخيرة التي وجهت الى النـــاس ، وعنيت بها الامة العربية بصفة خاصة . فمن أفقها طلعت شمس الاسلام في العصر الأول ، وأسفر الصبح الصادق . وقد أسكنها الله في خير مركز في العالم لتوجيه الدعوة الاسلامية وإزجاء الرسالة الاسلامية إلى الامم المتحضرة والعالم المتمدن ، وتبوؤ مكان القيادة العالمية .

ولما كانت هذه المحاضرات ، كتبت في ظروف مختلفة ، كنت أشك في وجود وحدة تربط بينها ، لذلك ، لما اقترح على نشر هذه الرسائل في مجموعة ترددت بعض الزمن في اجابة هـــذا الطلب ونظرت فيها من جديد فاذا بوحدة تجمع بينها ، وغاية تشترك فيها ، وهي الدعوة الى الاسلام من جديد ، فقبلت هـــذا الاقتراح ، وجمعتها في مجموعة اسميتها « الى الاسلام من جديد » وأدعو الله سبحانه وتعالى ، أن ينفع بها القراء ، وان يحرك بها سواكن القلوب ، ويحيي بها موات النفوس ، انه على كل شيء قدير

وقد طلبت من صديقي الجليل : فضيلة الاستاذ الشيخ احمد الشرباصي المدرس بالازهر الشريف ان يقدم كل محاضرة في سطور تتجاوب مع هدف المحاضرة وروحها ، وقد كان موفقاً وبارعاً في تقديم المحاضرات وتلخيص موضوعها في كلمات يجدها القارىء في ناصية كل محـاضرة .

ابو الحسن علي الحسني الندوي
نزيل القاهرة

(١)

معقل الانسانية

« كانت الدنيا قبل الرسالة المحمدية غابة افتراس ، وسوق سلع ، فجاء محمد صلى الله عليه وسلم بالاسلام ، فبعثها بعثاً جديداً ، واعطى الحياة عزتها وكرامتها وأعاد الايمان بالروح والبعث وهدى السماء . وما الأرض بدون الاسلام إلا مدنية بلا روح ، وحياة بلا مبدأ ، وأمة بغير رسالة ، وماذا تكون الحياة بدون عقيدة ويقين ؟ .

ولقد علم الاسلام اتباعه القوة والاقدام والجهاد والايثار والشهادة وإخلاص النية لله وحـــده ، فأصبحوا القوامين على العالمين وقد كانوا رعاة الشاة والابل . وإذا كان العالم الحائر المنكوب يريد الخلاص من ظلماته المتكاثفة فليستجب لهتاف الاسلام المنقذ فانه نور الخالق الهادي في هذا الوجود ، وليقدم المسلمون لتحقيق ذلك الانقاذ من جديد . فانهم معقل الانسانيـــة . »

احمد الشرباصي

معقل الانسانيه

سرح طرفك في عالم القرن السادس المسيحي ولا يفتننك الأبنية الشامخة المشيدة ، والملابس الفاخرة المزخرفة ، وقناطير الذهب والفضة المقنطرة فذلك ماتراه في مجموع الصور القديمة ودار الآثار العتيقة ، ولكن انظر هل ترى للمروءة حياة في ناحية من نواحي الشرق والغرب احبس نفسك واستمع ، هل تحس لها عرقاً ينبض وقلباً يخفق ؟

ترى الحياة بحراً يزدرد فيه الحوت الكبير الحـــوت الصغير والعالم غابة يفترس فيها الاسود والكلاب والخنازير والذئاب الغنم والخروف ، لقد انتصر الشر على الخير ، والرذيلة على الفضيلة والأهواء على العقل ، والبطن على الروح ، لقد طاولت الأرض السماء سفاهة ، ونصبت للفرقدين الحبائل .

أصبحت الدنيا سوقاً للمناداة ، بضائعها كل ملك ووزير وغني وفقير يباعـــون بيع السلع ، فهل ترى في هذا الغمار فتى يربأ بنفسه عن أن يباع بيع السلعة وينادى : ان هذا الجو الفسيح

لا يتسع لطيراني ، لقد كانت الحياة لا تقع مني بمكان ، فخلق الله لي حياة ثانية ، فكيف أبيع روحي وجوهر انسانيتي بكسر من كسور هذا العالم الصغير ؟

لقد صارت للشعوب والبلاد ، ثم القبائل والعشائر ، ثم الأسر والبيوتات ، دوائر صغيرة ، واعتاد أصحاب الطموح والكبرياء أن يسكنوا فيها كالاقزام لا يضيقون بها ذرعا . ولا يبغون عنها بدلا ، ولا يرون في خارجها ، حياة ، ولا يعرفون بشرية أوسع ، وعالماً أفسح ، ولقد أصبحت الحياة تعاطياً في البيع والشراء ، وتسابقاً في المكيدة والخداع ، أصبحت البشرية جثة هامدة ليس فيها حرارة روح ولوعة قلب ، وسمو نفس .

لقد نبتت على أديم البشرية غابة كثيفة ، وحشائش شيطانية فيها آجام يعيش فيها السباع الضارية والحشرات السامة ، وفيها مستنقعات فيها أنواع العلق ، وفي الغابة كل سبع مخيف ، وكل طائر جارح ، وفي المستنقعات كل علق خبيث يعلق بالانسان ويمتص دمه ، ولكن لم يكن في هذا العالم المزدحم بالبشر من يستحق أن يسمى بشراً ، أما الرجال فقد لجؤوا الى المغارات والاديار والكنائس ، واحتفظوا بدينهم وحياتهم ، أو مكثوا في تيار الحياة يتلهون بالفلسفة ، ويتفننون بالشعر ، وليس في المدينة رجل جد يكافح أعداء المدنية ، وينتصر للبشرية المظلومة .

وإذا بهذه الجثة البشرية الهامدة يدب فيها دبيب الحياة ، وإذا بهذا الجسد الميت يهتز اهتزازاً تتزلزل به أوكار الطيور التي قد عششت عليها وباضت وفرخت ، وهي تحسب أنها ميتة لاحراك بها ، وإذا ببيوت العناكب تتفتت وتتساقط ، وذلك مايعبر عنه أصحاب السير والروايات في لغتهم ، بارتجاج ايوان كسرى ، وخمود نار المجوس. أما رأيت كيف تتناثر المباني المجصصة ، والبروج المشيدة كأوراق الخريف بحركة من باطن الارض فيضرب بها ظهر الأرض ؟ فكيف لاتزلزل نظم كسرى وقيصر ، وما بناه فراعنة العصر ببعثة النبي الأعظم ﷺ وطلوع فجر السعادة والعدل في العالم ؟ .

بعث محمد بن عبد الله الهاشمي ﷺ في مكة قلب العالم المتمدن المعمور ، فأرسل صيحة دوت بها الغابات ، وجاوبتها الجبال وذلك قوله « لااله الا الله محمد رسول الله » كلام وجيز يحمل في أثنائه عالم المعاني والحقائق ، ولقد شهد التاريخ بأن أسس الحياة الكاذبة المزورة ودعائم النظم المصنوعة الجائرة لم تتأثر ولم تتزلزل بشيء ، مثل مازلزلت في هذه المرة ، بهذه الكلمة الوجيزة البسيطة ، وأن الذهن البشري لم يضرب أبدا قبل هذه ضربة موجعة ، فتألم بها هذا الذهن البليد واستشاط غضباً ، وجن جنونه وقال : أجعل الآلهة الها واحدا ان هـذا لشيء عجاب » واعتقد قادة هـذه الحياة أنه أمر مبيت وخطة مدبرة ضد هذه الحياة السائدة ، وأنه لابد من مكافحتها : « وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم ان هذا لشيء يراد »

لقد كانت ضربة قاضية على أفكار الحياة الخاطئة بأسرها ، يتأثر بها هيكل الحضارة والسياسة بجميع أركانه .

لقد كانت ـ ولاتزال ـ هذه الكلمة تعني أن هذه الحياة ليست أجمة برية وحشية لم يعتن بها معتن بل هي حديقة منسقة ، غرسها الله تعالى وتعهد تهذيبها واصلاحها ، وأن الانسان ريحانة هـذه الحديقة وروح الربيع وكيف تذبل هذه الريحانة وتدوسها الأقدام ، او تخطفها الطير ، أو تهوي بها الريح ، ولم تـؤد مهمتها ولم تحل المحل اللائق بها ؟ فتقتضي فطرته أن يعبد الله وحده ، وتطالبه نفسه السامية أن لا يقتنع بغير رضا الله ، ويقتضي شرفه وكرامته أن يجاهد في هذا السبيل ، ويبذل ما عنده من عقل ومواهب أو مال ومكاسب . وليس الانسان أن يتطا من الجسد أو روح أو جبل ونهر أو شجر وحجر أو ثروة مثر وجاه وجيه أو سلطان ملك ، إنه لايسمو على كل مخلوق ويتضاءل أمام خالقه ، ان العالم لم يخلق إلا ليخدمه ويطيعه ، ان الله سبحانه وتعالى قد أسجد الملائكة الذين هم حملة القوى الكونية ليعلم الانسان أن هذا الكون خاضع له متواضع ، فيأمره وينهاه ويستخدمه لمصالحه الطيبة ويسخره لمآربه العادلة . . . (وذلك قوله لا إله إلا الله).

ثم ان حياة الانسان هي السهم الوحيد الذي يملكه فاذا أصاب غرضه فياله من سهم مصيب ! وإذا طاش وأخطأ رميته

فيا رزيئة رام ضيع سهمه الوحيد ! وان حياته لوسيلة كل سعادة في الدنيا والآخرة ، وأنها رأس بضاعته ، فأخلق به أن يكون ضنيناً بهذه الحياة ، شديد الاحتفاظ بها ، وألا يضيعها في تجربة واختبار وفي مخاطرة وقمار ، وألا يخبط فيها خبط عشواء ، ولا يركب العمياء فانما هي حياته الوحيدة ، وما اقبح القمار في رأس المال وما اشده خطراً ! فينبغي أن يسير موكب الحياة بدلالة خرّيت حاذق مجرب ، فان المفازة موحشة ، وقطاع الطريق كثير ، وان يسير في ضوء النبوة والوحي ، فان عالم القياس والتخمين ظلام في ظلام « ظلمات بعضها فوق بعض » وأن النبوة هي النور الوحيد في هذه الظلمات المتراكمة ، والمنبع الوحيد لعلم الله المحكم ، وأمره المبرم ، والنبي هو المتصل بهذا المنبع ، والواسطة بين الحق والخلق في الهداية **(ماينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى)** وأن محمداً ﷺ هو آخر المتصلين بهذا المنبع ، وخاتم الأنبياء والمرسلين ، الذي نسخ الله به الاديان ونصبه اماماً لكل زمان ومكان ، وهو أجمعهم لصفات النبوة والكمالات البشرية ، ومعاني الحسن والاحسان ، وهو المثل الكامل للبشر في كل عصر ومصر . وأن دينه الذي جاء به هو رسالة كل عصر ودواء كل داء ، فلا يتم الايمان بالله ولا يمكن الوصول اليه إلا بالايمان بالرسل عامة ، وبمحمد ﷺ خاصة . وذلك قوله : « محمد رسول الله » وان الانسان ليحمل في رأسه طموحاً لا يشبع ، وهمة في قلبه لا تقف ، وروحاً في جسمه لا تني ، وقلباً في جنبه لا يطمئن فلا

يروي غلته ، ولا يشبع جوعته هذا العالم الضيق المتثاقل وان طاعته وعصيانه لأوسع من أن يستوفي ثوابها أو عقابها في هذا العالم المحدود ، فتلزم له حياة خالدة ، وعالم لا يعرف الثغور والأطراف ليست هذه الحياة الا قطرة من يم إذا قورنت بالحياة الآخرة وليس هذا العالم الا شبحاً إذا قوبل بالعالم الآتي ، وذلك هو الايمان بالبعث والحياة الآخرة ، الذي هو تمام الايمان ، وثالث الأركان في الأديان .

لقد بلغ الذهن الانساني في القرن السادس المسيحي من الشلل الفكري وبلادة الحس غاية عجز معها عن أن يتخطى الماديات والمحسوسات ، وما يتصل بالجسم والبطن ، وأن يعتقد لانسان اختصاصاً بالنبوة والوحي ؛ لقد كانت لهم مقاييس ورثوها عن آبائهم ، فاذا رأوا بدعاً من البشر ، أو مثالا جديداً للانسانية ، قاسوه بمقاييسهم . لقد كان بينهم رجال يرون أنهم المنتهى في العظمة الانسانية فاذا نبغ فيهم عبقري ، أو ظهر فيهم رسول ، قاسوه بهم ، لقد أفرغوا جهدهم ، ونثروا كنانة فكرهم ، فلم يروا الا أن محمداً ﷺ : إما طالب ثراء ورخاء أو رائد سيادة وملك أو منتجع ترف ولهو ، وإذا أنصفنا ذلك الجيل رأينا أنه لم يعد النجعة فانه لم يجرب طموحاً فوق طموح الملوك ، وتطاولا أكثر من تطاول الامراء والوزراء فأرسلوا اليه عتبة بن ربيعة فكلم محمداً ﷺ وكان ما قاله تمثيلاً صحيحاً للذهن ذلك العصر ، وتعبيراً صادقاً عن عواطفه ونفسيته

قال : (يا ابن أخي إن كنت انما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا ، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت انما تريد به شرفاً ، سودناك علينا حتى لانقطع أمراً دونك ، وإن كنت انما تريد به ملكا ملكناك علينا) .

وما أجاب به رسول الله ﷺ كان تمثيلاً صحيحاً للنبوة وعرضاً صادقاً لموقف الأمة الوليد ، فأثبت أنه لايطمح الى ثراء ورخاء ، أو شرف وترف ، إن نفسه عالية لتسمو عن هذه الخسائس سمو السماء على الأرض . إنه لاتهمه راحته الذاتيه ، ورقيه الشخصي انما يقلقه مستقبل البشر إنه لايصنع لنفسه جنة شداد ، بل يريد أن يعيد الانسان المنفي إلى الجنة الخالدة التي أعدت له ، انه لا يسعى ليسود قبيلة أو أمة بل يريد أن يخرج الانسان من حكم الانسان ، كائنا من كان ، ويدخله في حكم سيده الذي هو رب السماوات والأرض .

على هذا الأساس نهضت هذه الأمة ، وبهذه الرسالة انتشرت في العالم ، وان ما أجاب به رسل المسلمين في مجالس رستم ، ويزدجرد يمثل تمثيلاً صادقاً لروحها ونزعتها قول ربعي بن عامر : إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة ومن جور الأديان إلى عدل الاسلام » ولما أمكنهم أن يؤسسوا دولة على منهاج دينهم وأساس

عقيدتهم ، نفذوا فعلاً ماكانو يدعون اليه غيرهم ، فخرج الانسان من حكم الانسان الى حكم الله وعدله ، ولم يكن الحكم لحزب أو عشيرة ، بل كان الأمر والنهي لله . يقول الخليفة الأول : (أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فان عصيته فلا طاعة لي عليكم) وقال عمر لعمرو ابن العاص ـ وقد ضرب ابنه رجلا من أهل مصر ـ : (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً) وكان نائبهم على مملكة كبيرة كفارس يعيش في عاصمتها القديمة كأدنى فرد من أفراد الأمة حتى يتوهم الغريب أنه فقير أو أجير فيضع الحمل على رأسه فيحمله إلى بيته ، وكان أكبر غني منهم يعيش في الدنيا كأنه غريب أو عابر سبيل فيستهين بلذات هذه الحياة الفانية ، ويدخر طيباته للحياة الخالدة .

كان وجود هذه الأمة في كل ناحية من نواحي العالم رمزاً لحقيقة غير الحقائق المادية واللذات الجسدية ، وكان كل فرد من أفراد هذه الأمة يعلن للعالم ، وليدا وميتا ، ان وراء القوى المادية قوة سماوية ، ووراء الحياة الفانية حياة خالدة ، فاذا ولد وليد صرخ في أذنه بهذه الحقيقة ، وإذا مات ، فارق الدنيا بهذه الشهادة ، إذا ساد على هذا العالم جمود أشبه بالموت ، وغاص الناس في بحر الحياة إلى آذانهم ، واختفت كل حقيقة وراء الحقائق المادية ، إذا بصوت يدوي (حي على الصلاة ، حي على الفلاح) فينكر طلسم العالم المادي

وتتجلى الحقيقة الروحية، ويجري الناس وراء هذا الصوت وقد نفضوا أيديهم من أشغالهم، وخروا أمام ربهم، وإذا ضرب الليل رواقه، ومد النوم أطنابه على هذا العالم الحي الصاخب، فاذا هو مقبرة واسعة، ليس بها داع ولا مجيب، إذا بمين الحياة ينصب في وادي الموت. وينبلج الصبح الصادق في الليل الغاسق، وتتلقى الانسانية الناعسة من مؤذن الفجر درساً في الحياة والنشاط والكدح والكفاح، والشكر والعبادة، وإذا اغتر أحد بقوته وسلطانه وزها بكثرة ملئه واعوانه، وقال بلسان المقال أو بلسان الحال (أنا ربكم الأعلى) أو (مالكم من اله غيري) قام رجل متواضع على منصة عالية في كل بقعة من بقاع مملكته أو ذوده ونادى (الله أكبر الله أكبر) فينادي بحكم الله في مملكته وبرغم أنف الاله الكاذب في سلطانه.

إذا هاجرت جالية مسلمة من رقعة من رقاع هذه الارض، أو أجليت منها لم يصب نظام المعيشة بشلل أو خلل، وظل الناس يتكسبون ويأكلون كما تأكل الأنعام، وظلت رحى الحياة تدور دورها الطبيعي، ولكن روح هذا المجتمع الانساني يفارق جسده فيصير جثة هامدة لا حياة فيها ولا روح، كذلك كان في أسبانيا، وكذلك كان في كل بقعة انسحب منها المسلمون، أو أجلاهم عنها هلها، وهل اساتيا الحاضرة الا مدنية بلا روح، وحياة بلامبدأ، وأمة بغير رسالة لعالم ؟!

إن المؤمن وحده هو صاحب عاطفة في هيكل العقل والمادة الذي لا يعبد فيه إلا النفس والبطن، وهل الحياة إلا بالعاطفة ؟ وهل الدنيا إذا ماتت العاطفة، وغلب العقل، وحكمت الماده الا سوق تجارة أو ميدان حرب ؟ فاذا ثار المؤمن للحق، كسر طلاسم العقل، وفك سلاسل الكون، وحطم صنام المادة، وأملى على العالم إرادة الله فاذا هو مطيع خاضع وإذا هو متواضع خاشع، وقلب تيار الحياة وغير وجه التاريخ، وأرغم الكون على أن يسير سيرته.

خالت دجلة في سبيل المسلمين دون المدائن، وكانت السنة كثيرة المدود، ودجلة تقذف بالزبد، فجمع سعد الناس، فحمد الله وأثنى عليه وقال: ألا اني قد عزمت على قطع هذا البحر اليهم ؟ فقالوا جميعاً: عزم الله لنا ولك على الرشد فافعل، فندب الناس إلى العبور، وأذن لهم في الاقتحام وقال. قولوا: نستعين بالله ونتوكل عليه، حسبنا الله ونعم الوكيل، والله لينصرن الله وليه، وليظهرن دينه وليهزمن عدوه ولا قوة الا بالله العلي العظيم، وتلاحق الناس في دجلة، وهم يتحدثون كما يتحدثون في البر وطبقوا دجله حتى ماترى من الشاطيء شيء[1]

(١) الكامل لابن الأثير ج ٢ ص١٩٨

نزل طارق بالاندلس والبحر وراءه ، والعدو أمامه ، والمستقبل رهيب ، والطريق مظلم ، والارض كفة حابل ، والعدد زهيد ، والمدد بعيد ، فهزىء بأشباح المادة المخيفة ، وعاند العقل ، وأمر باحراق السفن التي ترجع به إلى بلاده (١) ، وعزم على الفتح ، وأيقن بالنصر ، فهزم العدو ، وملك الجزيرة الخضراء للمسلمين .

أراد عقبة بن نافع أن يتخذ مدينة في إفريقية يكون بها عسكر المسلمين وأهلهم وأموالهم ليأمنوا من ثورة تكون من أهل البلاد فقصد موضع القيروان ، وكانت وحلة مشتبكة بها من أنواع الحيوان من السباع والحيات وغير ذلك ، فدعا الله ، وكان مستجاب الدعوة ثم نادى أيتها الحيات والسباع ، انا أصحاب رسول الله ﷺ ارحلوا عنا ، فانا نازلون ، ومن وجدناه بعد ذلك قتلناه . فنظر الناس ذلك اليوم إلى الدواب تحمل اولادها ، وتنتقل ، فرآه قبيل كثير من البربر فأسلموا (٢)

خرج محمد بن القاسم — وهو ابن سبع عشرة سنة — لغزو الهند ومعه حفنة من الناس والبحار حائلة ، وبلاد العدو واسعة الأطراف وعرة المسالك ، لم يجربها العرب ، فهزىء بالمعوقين والمرهبين ، وغلب الروح المادة واذا بالهند من السند إلى الملتان خاضعة للمسلمين .

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ١٢١
(٢) الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ٢٢٤

ان العالم كله مدينة الاوهام ، والمؤمن وحده هو صاحب يقين لا يزول ، وعقيدة لا تتحول ، وهو في عالم الاوهام كمصباح الراهب في الغابة المظلمة ومنارة النور في بحر الظلمات ، والجزيرة التي يأوي اليها اليائسون ، والطود الذي لا تزحزحه السيول ، ولا تزلزله العواصف وقد يتمسك بيقينه ولا يوافقه على ذلك أحد ولا يصدقه أحد ، فلا تخور عزيمته ، ولا تلين عريكته ، ولا يرتاب ، ولا يتردد ، والناس بين معارض ومنتقد ، ومطيع كاره ، أو مخالف معتزل ، وهو لا يحفل بذلك ويمضي كالسيف حتى يهزم يقينه الف جندي من الشك وينقشع سحاب الاوهام ويظهر يقينه مثل فلق الصبح .

استعمل النبي ﷺ أسامة بن زيد على جيش المسلمين وأمره بالتوجه الى الشام ، وتوفي النبي ﷺ ولم يسر الجيش ، وارتدت العرب ، اما عامة أو خاصة ، من كل قبيلة ، وظهر النفاق ، واشرأبت يهود والنصرانية وبقي المسلمون كالغنم في الليلة المطيرة ، لفقد نبيهم ، وقلتهم وكثرة عدوهم ، فقال الناس لابي بكر : إن هؤلاء — يعنون جيش أسامة — جند المسلمين ، والعرب على ماترى قد انتقضت بك فلا ينبغي أن تفرق جماعة المسلمين عنك ، فقال أبو بكر : والذي نفسي بيده لوظننت ان السباع تختطفني لانفذت جيش أسامة كما أمر النبي ﷺ ، فخاطب الناس ، وأمرهم بالتجهز للغزو ، وأن يخرج كل من هو من جيش أسامة الى معسكره بالجرف ، فخرجوا كما أمرهم ، وحبس أبو بكر من بقي من تلك القبائل التي كانت لهم الهجرة في

ديارهم فصاروا مسالح حول قبائلهم وهم قليل ، فلما خرج الجيش الى معسكرهم بالجرف وتكاملوا أرسل أسامة عمر بن الخطاب ، وكان معه في جيشه ، إلى أبي بكر يستأذنه ان يرجع بالناس وقال : إن معي وجوه الناس وجلتهم ولا آمن على خليفة رسول الله وحرم رسول الله والمسلمين أن يتخطفهم المشركون . وقال من مع أسامة من الانصار لعمر بن الخطاب : إن أبا بكر خليفة رسول الله الافامض فابلغه عنا ، واطلب اليه : ان يولي أمرنا اقدم سناً من أسامة ، فخرج عمر بأمر أسامة الى أبي بكر فأخبره بما قال أسامة فقال لو خطفتني الكلاب والذئاب لانفذته كما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا ارد قضاء قضى به رسول الله ﷺ ولو لم يبق في القرى غيري لانفذته ، قال عمر : فان الانصار تطلب رجلاً اقدم سناً من أسامة فوثب أبو بكر وكان جالساً وأخذ بلحية عمر ، وقال : ثكلتك امك يا ابن الخطاب استعمله رسول الله ﷺ وتأمرني ان أعزله ؟ !

وسار أسامه وأوقع بقبائل من ناس قضاعة التي ارتدت وغنم وعاد ، وكانت غيبته اربعين يوميا ، وقيل سبعين وكان انفاذ جيش اسامة أعظم الامور نفعا للمسلمين فان العرب قالوا : لو لم يكن بهم قوة لما ارسلوا هذا الجيش فكفوا عن كثير مما كانوا يريدون ان يفعلوه (١)

---

(١) الكامل لابن الأثير ج ٢ ص ١٢٧ — ١٢٨

ان العالم سوق لارحمة فيها ولاشفقة ولامسامحة فيها ولا كرم ، والمؤمن وحده هو الذي يؤثر على نفسه ولو كان به خصاصة ويسامح مدينه وعدوه ، ويتنازل عن ملك واسع ، وعرض قريب طمعاً في الأجر ، ومحافظة على الكرم .

تغلب ملك كافر على دولة اسلامية في بلاد مالوه بالهند سنة ثلاث وعشرين وتسع مائة ، وخرج محمود شاه الخلجي صاحب مالوه من بلاده هارباً عنه الى كجرات ، فنهض السلطان مظفر الحليم - وكان الخلجي لايزال على القلعة ، وشرع في المحاصرة وجد في اسباب الفتح ، ودخل القلعة عنوة ووضع السيف فيهم ، وكان آخر أمرهم انهم دخلوا مساكنهم ، وغلقوا الأبواب ، واشعلوها ناراً فاحترقوا وأهليهم ، وبلغ عدد القتلى من الكفرة تسعة عشر الفاً سوى من أغلق بابه واحترق ، وسوى اتباعهم ، فلما وصل السلطان الى دار سلطنة الخلجي ، التفت اليه ، وهنأه بالفتح ، ودعا بالبركة في ملكه ، وقال له: بسم الله ادخلوها بسلام آمنين . وعطف عنانه خارجاً من القلعة الى القباب ، وهيأ الخلجي الضيافة ، ونزل الى مظفر شاه السلطان وسأله التشريف بالطلوع ، فأجابه ، فلما فرغ من الضيافة دخل به في الأبنية التي هي من آثار ابيه وجده ، فأعجب بها ، وترحم عليهم ثم جلسا في جانب منه ، وشكره الخلجي وقال : الحمد لله الذي اراني بهمتك ما كنت اتمناه بأعدائي ، ولم يبق لي الآن ارب في شيء من الدنيا ، والسلطان اولى بالملك مني ، وما كان له فهو لي . فأسأله

قبول ذلك وللسلطان ان يقيم به من شاء. فالتفت السلطان اليه وقال له: ان اول خطوة خطوتها الى الجهة كانت لله تعالى، والثانية كانت لنصرتك، وقد نلتها. فالله يبارك لك فيه، ويعينك عليه، وسأله أركان دولته ان يستأثر بدولة الخلجي فالتفت الى محمود وقال له: احفظ باب القلعة برجال لايدعوا أحداً يدخلها بعد نزولي حتى من ينتسب الي وانصرف الى بلاده (١).

العالم بلاد لايعيش فيها الا من يحمل في جنبه قلباً كأنما قد من حجر، لايعرف الحنان والرحمة ولايعرف معنى الحب والايثار والمؤمن وحده هو الذي يحمل في جنبه قلباً يفيض حناناً ورحمة للبشر، ويجمع بين الرحمة والشدة، والصلابة والرقة، وشكيمة الأسد وحنان الأم، تخلق بأخلاق الله، فجمع بين الرأفة والعزة، والجمال والجلال، وتخلق بأخلاق الرسول ﷺ فلا يغضب لنفسه، حتى اذا تعدى الحق لم يقم لغضبه شيء. فبينما تراه في ساحة الجهاد كأنه نار في حطب، أو منجل في حقل، ليس له عاطفة ولا قلب، اذا به تراه في الصلاة تهمل عيناه، ويغلي صدره كالمرجل، وتراه يرق للضعيف، ويحنو على الأرملة واليتيم، قد جمع بين حلاوة العسل ومرارة الحنظل، إلا أن الاولى له سجية وطبيعة، والثانية له وسيلة

(١) نزهة الخواطر: للسيد عبد الحي الحسني ج ٤

وذريعة؛ فهو ينشد بلسان الحال: (واني لحلو تعتريني مرارة) لايدع السماحة والكرم حتى مع العدو، ولا يترك التمسك بالاخلاق العالية حتى في ساحة القتال.

هذا صلاح الدين الذي سار مثلاً في شدته وجلادته، تستغيث به امرأة اختطف ولدها فهي تبكي بكاء الثكالى، فيرق لها بطل حطين، ويطوف بها على القبائل والمنازل، حتى تعرف ابنها وتضمه إلى صدرها (١)، ويهدي الى قرنه واعدى عدوه في العالم رتشرد الثلج والفواكه في مرضه (٢).

الناس من خوف الموت في الموت وأشد من الموت، يعدون هذه الحياة رأس مالهم، ومنتهى آمالهم. أفليس من الغريب ان يود احدهم لو يعمر ألف سنة، حتى اذا جاءه الموت خرج من الدنيا حزيناً متلهفاً على مايفارقه، كارهاً مستبشعاً لما يستقبله.

أما المؤمن، فهو دائم الحنين الى ربه، شديد الشوق الى جنته لايبالي أوقع عليه الموت أم على الموت وقع، يستقبل الموت باسم الثغر، جذل القلب، فرحاً مستبشراً، كأنما هو خارج من السجن أو عائد الى الوطن.

لما طعن جبار بن سلمى عامر بن فهيرة يوم بئر معونة فانفذه قال عامر: فزت ورب الكعبة (٣) ولما ضرب ابن ملجم علي بن أبي طالب. قال فزت ورب الكعبة (٤)

(١) (٢) الفتح القسي في الفتح القدسي: لعماد الدين الكاتب.
(٣) طبقات ابن سعد (٤) كتاب المتفجعين لمحمود بن محمد بن الفضل.

قام ابو عبيدة في الناس في طاعون عمواس ، فقال : ايها الناس ان هذا الوجع رحمة ربكم ، ودعوة نبيكم ، وموت الصالحين قبلكم وان أبا عبيدة سأل الله ان يقسم له منه حظه ، فطعن فمات . واستخلف على الناس معاذ بن جبل ، فقام خطيباً بعده فقال : ايها الناس إن هذا الوجع رحمة ربكم ، ودعوة نبيكم ، وموت الصالحين قبلكم، وان معاذا يسأل الله أن يقسم لآل معاذ حظهم ، فطعن ابنه عبدالرحمن فمات ثم قام ، فدعا به لنفسه ، فطعن في راحته ، فلقد كان يقبلها ثم يقول ماأحب ان لي بما فيك شيئاً من الدنيا . (١)

وحضر بلالا الوفاة فقالت امرأته : واحزناه . قال : بل واطرباه غداً نلقى الأحبة محمداً وحزبه (٢) . وكذلك روى عن عمار أنه كان يقول ذلك عند وفاته (٣) .

المؤمن هو الذي يستطيع أن يفضل الفقر على الغنى ، والآخرة على الدنيا ، والنسيئة على النقد الحاضر ، والغيب على الشهود ، والدين على الحياة في كل دور من أدوار التاريخ ، مهما بلغت المادة أوجها .

ليس لقطر من الأقطار أن يمن على الاسلام بأنه فسح له في أرضه ، وانما الفضل والمنة للاسلام على كل قطر ، فقد ألقى عليه درساً في التوحيد الذي لايشوبه شرك ، وحب الانسانية العامة واحترامها ، ووسع افق خياله فصار يرى للحياة معنى غير معنى ،

(١) الكامل لابن الأثير ج ٢ ص ١١٦ (٢) الغزالي في الاحياء عن ابن ابي الدنيا
(٣) الطبراني

وللانسانية مستوى أرفع من مستواها القديم ، وعالماً أفسح من وكره الذي يعيش فيه ، انه وضع عن كل أمة اصرها ، والاغلال التي كانت عليها ، وأنقذها من العنصرية والجنسية والوطنية وعبادة المال والبيوتات والأشجار والاحجار والحيوانات والأنهار والأرواح والاجرام السماوية ، ومن الرهبنة الفاتكة بالمدنية ، والعزبة القاطعة للنسل ، وهو الذي كسر طلسم الأوهام التي مضى عليها قرون ، ودرج عليها أجيال ، اطلق العقل من إساره ، ورفع الحجر عن العلم ، ونسخ احتكار البيوتات للدين ، ورسم في الذهن منزلة العمل الفردي والسعي الشخصي ، واستقلال كل انسان بعمله ومسؤوليته. ومن الذى يستطيع أن ينكر أن الفضل في تقدم العالم ، وقطع مراحل المدنية والعلم ، انما يعود الى الاسلام ؟ ومن الذي يجهل اليوم أن الفضل في تقدم اوربا ، وتخلصها من رق الاحبار والرهبان وسلاسل الكنيسة والحكم المطلق ، وفي العكوف على العلوم الطبيعية والتجربة ، والخروج من الهمجية إلى الحضارة ، انما يعود إلى الأندلس الاسلامية التي ظلت قروناً طوالاً مشعل الثقافة ، ومنبع العلم ، ومدرسة الفن والتهذيب في العصور المظلمة ! إن كلمات العدل ، والمساواة والانسانية ، والعالمية ، منتشرة ذائعة اليوم في كل ناحية من نواحي الهند وبارزة على كل صفحة من صفحات أدبائها وكتابها ، وخفيفة على لسان كل خطيب ومتكلم ، ومن ذا يكابر في أن الاسلام هو الذي عرف هذه الكلمات إلى اهل هذه البلاد وسعى في رواجها

وذيوعها في بلاد لم تكن تعرف هذه الكلمات ومعانيها .

إن المسلمين ليسوا نسلا أو شعباً فحسب، وليس الاسلام عادات وتقاليد وتراثاً يتوارثه ولد عن أبيه ، إنه دعوة ورسالة وحياة وعقيدة تقتضي بالطبع أن يكون نظر المسلم أوسع من الماديات والمحسوسات ومن عالم النفوس والبطون، ووطنه أوسع من المنطقة الصغيرة التي ولد فيها ، وان يكون قلبه عامراً بحب كل انسان كائناً من كان وألا تكون الأوطان والانساب عائقاً في سبيل حبه وعطفه وألا يكون سعيه منحصراً في نطاق الحياة الضيق ، ويلزم لكل من يدين بهذا الدين أن يحمل للبشرية رسالة للروح والقلب والعاطفة والسياسة والاجتماع ويملك قوة اخلاقية تراقبها في النور والظلام والوحدة والاجتماع والعجز والمقدرة عنده أساس متين من العلم وبينات ومحكمات في المدنية ، وحياة نبي كان ولايزال المثل الكامل للبشرية في مختلف ظروفه وأحواله، ومختلف عصوره وأجياله، وكل عصر وقطر، ومفزع الانسانية في كل ساعة عصيبة . وكلما حلت بها أزمة عجزت عن حلها العقول البشرية والنظم الاجتماعية والسياسية .

إذا حجب الليل النهار ، وهجمت جنود الهوى من كل جانب، وهزمت الفضيلة والاخلاق ، وإذا اصبح الانسان ينحر أخاه لأجل فلس أو لأجل قرص ، وإذا اصبحت الشعوب الكبيرة تزدرد الشعوب الصغيرة في سبيل الجشع او الخيلاء، وإذا صار وثن المال يعبد على قارعة الطريق ، وإذا ضحي بألوف من الناس على

انصاب الجنسية والوطنية ، وإذا حال الانسان بين الانسان ورزقه اذا التهبت نار الشهوات وانطفأ نور القلب ، اذا نسي الانسان الموت وعكف على الحياة يعبدها، إذا غلا الجماد والمعادن، ورخص الانسان في سوق العالم، فصارت المدن العامرة تسوى بها الأرض وألوف من البشر يقتلون في دقائق وثوان بالقنبلة الذرية : إذا تغلبت الامم الأوربية على العالم وجعلته بيت المقامرين، أو سوق الجزارين، وعبثت الانسانية عبث الوليد بجانب القرطاس، وتلاعبت بالامم كالكرة ، إذا ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت ايدي الناس ، هنالك يستصرخ هذا الكون المؤمن ويستغيث به وهنالك تناديه الانسانية باسم الاسلام الذي طلع كالصبح الصادق في ظلام الليل الحالك، وباسم محمد ﷺ الذي اغاث الله به الانسانية في احتضارها، وانتحارها، وحفظ به مهجة الانسانية، وأدال به من الجاهلية الجهلاء .

فهل يسمع المؤمن في جزيرة العرب التي أشرقت منها شمس الاسلام، وفي حواضر البلاد العربية في آسيا وافريقيا وفي الأقطار الاسلامية عامة صراخ الانسانية وعويلها، فيهب من نومه العميق الطويل الذي مله العالم، ويثب كالأسد، وينقض كالصقر على اعداء الانسانية ؟ إنه بذلك لجدير، وبحول الله على ذلك قدير ، فهو معقل الانسانية، ومنتهى الرجاء، وأمين الله في الأرض، وخليفة الأنبياء :

يدعون سياراً إذا أحمر القنا   ولكل يوم كريهة سيار

(٢)

المد والجزر

في تاريخ الاسلام

« لماذا تتابعت النكبات على المسلمين ؟ ... إن التاريخ أصدق ناطق فاستنبئوه ... لقد كان العرب قبل الاسلام هملاً بين الناس . لا يقام لهم عند الشعوب ميزان ، جاء الاسلام فجعلهم الفاتحين السادة القادة الذين رفعوا لواء الاسلام في المشارق والمغارب ، مما أدهش وحير وأسر ، لقلة الزاد عند المسلمين والعتاد والعدد ، مع كثرة الأعداء وتشعب الأنحاء ، ولقصر الوقت وسرعة التقدم ، وما نجحوا إلا لأنهم أصبحوا بنعمة الايمان رجال دعوة ، وأصحاب مبدأ ، يعرضون عن الدنيا إلى الآخرة ، ويرضون الله أولاً وأخيراً ، ويعملون لهداية العالمين بنفوس مؤمنة ، وارواح تهفو الى لقاء الله كما يهفو الضال إلى مثواه ، فليسوا طلاب شهور أو مجد ، لكنهم طلاب شهادة .

وما ضعف المسلمون وذلوا إلا يوم فقدوا الايمان والزهد والجهاد وحب الشهادة ، ولن يعرفوا طريق العزة إلا باستعادة هذه الصفات » .

الشرباصي

المد والجزر

في تاريخ الاسلام

كان العرب قبل الإسلام أمة كادت تكون خاملة منعزلة عن العالم ، قد فصلتها عن العالم المتمدن المعمور البحار من ثلاثة جوانب ، والصحراء من جانب وكانت من الانحطاط والانقسام والضعة والخمول بمكان لا تطمح فيه حيناً من الدهر إلى غزو البلاد ، ولا تحلم بالانتصار على الدول المجاورة لها في المنام ، ولا تحدث به نفسها يوماً من الأيام .

هذا ، ودولتا فارس والروم يومئذ سيدتا العالم ، وزعيمتا الشرق والغرب ، وقد أحاطت ممتلكاتها بشبه جزيرة العرب إحاطة السوار بالمعصم ، وإنما زهد الفرس والرومان في فتح هذه الجزيرة وعورتها ، وقلة خيراتها ومواردها ، وما يكلفهم ذلك من رجال وأموال ، هم في غنى عن إنفاقها في هذه الصحراء المجدبة ، وفي هذه الأمة الفقيرة ،

وإنما اكتفوا برقابتهم السياسية عليها ، وبإماراتهم التي أنشؤوها على ثغور هذه الجزيرة الواسعة ولهواتها .

هكذا كانت هذه الأمة التى كانت لتمثل دوراً مدهشاً في تاريخ العالم عن قريب ، كانت أمة بدوية موهوبة – ولكن مواهب ضائعة – لا يرفع الناس بافرادها في العراق والشام ومصر رأساً ، إذا مروا بهم تجاراً أو ممتازين ، ولا يحسبون لهم حساباً ، ولا يهمهم من شأنهم إلا مايهم أهل المدن شأن الاعراب المستغربين في اللباس والصورة واللسان ، ولا يذكرونهم – إذا ذكروهم – إلا بذلاقة لسانهم وفصاحة منطقهم وشجاعتهم ، وجودة خيلهم ووفائها ، إلى غير ذلك مما قد تعرفه الأمم المتمدنة عن الأمم البدوية .

وإذا أردت أن تعرف منزلة العرب عند أهل العالم ، قبل الاسلام ، والنظرة التي كان ينظر اليهم بها جيرانهم في الشرق والشمال ، فاستعرض الآراء التي أبداها رجال ذلك العصر من أهل البصر والمعرفة ، ووافق عليها العرب أنفسهم وزادوا عليها .

فمما حفظه لنا التاريخ من هذه الآراء : ماقال امبراطوز الدولة الفارسية لسفراء المسلمين .

جاء في كتاب البداية والنهاية لابن كثير الدمشقي ، بعدما ساق حديث رسل المسلمين في مجلس يزدجرد ، قال :

« فتكلم يزدجرد فقال : إني لا أعلم في الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عدداً ، ولا أسوأ ذات بين منكم ، قد كنا نوكل بكم قرى الضواحي ليكفوناكم ، لاتغزوكم فارس ، ولا تطمعون أن تقوموا لهم . فان كان عددكم كثر فلا يغرنكم منا . وإن كان الجهد دهاكم ، فرضنا لكم قوتاً إلى ، خصبكم وأكرمنا وجوهكم ، وكسوناكم وملكنا عليكم ملكا يرفق بكم » .

فقال المغيرة بن شعبة :

« أيها الملك ، إنك قد وصفتنا صفة لم تكن بها عالماً . فأما ماذكرت من سوء الحال : فما كان أسوأ حالاً منا ، وأما جوعنا : فلم يكن يشبه الجوع ، كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيات ، ونرى ذلك طعامنا . وأما المنازل فانما هي ظهر الارض ، ولا نلبس الا ماغزلنا من أوبار الابل وأشعار الغنم ، ديننا أن يقتل بعضنا بعضاً ، وأن يبغي بعضنا على بعض ، وإن كان أحدنا ليدفن ابنته وهي حية ، كراهية أن تأكل من طعامه . وكانت حالنا قبل اليوم على ماذكرت لك فبعث الله إلينا رجلاً الخ (١) »

وجاء في هذا الكتاب أيضاً :

(قد بعث أمير الفرس يطلب رجلاً من المسلمين ليكلمه . فذهب اليه المغيرة بن شعبة – فذكر من عظم مارأى عليه من لبسه

(١) البداية والنهاية ج ٧ ص ٤٢

ومجلسه، وفيما خاطبه به من الكلام في احتقار العرب واستهانته بهم وانهم كانوا أطول الناس جوعاً، وأقلهم داراً وقدراً. وقال: ومايمنع هؤلاء الاساورة (١) حولي أن ينتظموكم بالنشاب إلا مجاً من جيفكم، فان تذهبوا نخل عنكم، وإن تأبوا نذركم مصارعكم. قال: فتشهدت وحمدت الله، وقلت: لقد كنا أسوأ حالا مما ذكرت حتى بعث الله رسوله الخ (٢)

وفي هذا الكتاب أيضاً:

« ذكر الوليد بن مسلم: ان ماهان طلب خالداً ليبرز اليه فيما بين الصفين فيجتمعا في مصلحة، فقال ماهان: إنا قد علمنا أن ماأخرجكم من بلادكم، الجهد والجوع، فهلموا إلى أن أعطى كل رجل منكم عشرة دنانير وكسوة وطعاماً، وترجعون إلى بلادكم. فاذا كان من العام المقبل بعثنا لكم بمثلها (٣)

وهذا كله يدل على ماكان يساوي العرب عند الروم، وعلى ماكان لهم من قيمة ومنزلة عندهم.

ولكن سرعان ما تغيرت الأحوال وانقلبت الحقائق، وبطلت التجارب السابقة، وتاه العقل، إذ خرج هؤلاء الاعراب من صحرائهم

(١) الاسوار والأسوار عند الفرس: القائد ج: أساور وأساورة
(٢) البداية والنهاية ج ٧ ص ١٠٩
(٣) البداية والنهاية ج ٧ ص ١٠

يفتحون و يقهرون ويغلبون ويخضعون، تدفق هذا السيل من مدينة الرسول ﷺ عاصمة العرب الاسلامية، لاحدى عشرة سنة للهجرة النبوية، واثنتين وست مائة لميلاد المسيح، فغلب كل شيء اعترضه في الطريق، وطما على السهل والجبل، ولم تكن جيوش فارس والروم ومصر وغيرها المعدودة بمئات الألوف، الشاكية السلاح، الشديدة البطش، التي كانت الارض تزلزل بها زلزالا - لم تكن هذه الجنود المجندة إلا حشائش في هذا التيار الجارف، فلم تعق سيره، ولم تغير مجراه، حتى فاض في مروج الشام وفلسطين، وسهول العراق وفارس، وربوع مصر والمغرب الأقصى، وأودية هملايا، سال هذا السيل القوي بالمدنيات العتيقة، والحكومات المنظمة القوية، والأمم العريقة في المجد والسلطان، وأصبحت خبرا بعد عين (وجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق)

خرج العرب من جزيرتهم، فاحتكوا بالفرس والروم، وكان العرب يكرهون وجوههم (١) ويرهبون سطوتهم في ديارهم، ولكن هانوا عليهم في هذه المرة فغزوهم في عقر دارهم، ونزلوا بساحتهم، فما لبثوا أن مزقوا جموعهم شر ممزق وثلوا عروشهم، ووطؤوا

(١) قال الطبري: عندما أراد عمر فتح فارس تخوفوا من الفرس وعجبوا كيف يستطيعون أن يحاربوهم؟ وكان وجه فارس من أكره الوجوه اليهم وأثقلها عليهم، لشدة سلطانهم وشوكتهم وعزهم وقهرهم الأمم (تاريخ الطبرى ج ٤ : ٦١)

تيجان ملوكهم ، وفتحوا كنوزهم ، واقتسموا أموالهم وتراث ملوكهم ، وسبوا ذراريهم ، ومزقوا رداء فخرهم وعظمتهم ، فلم يرفع أبداً ، وكسروا شوكتهم فلم تعد أبداً ، وهلك كسرى فلا كسرى بعده ، وهلك قيصر فلا قيصر بعده (واورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها التي باركنا فيها)

خرج هؤلاء العرب من جزيرتهم في ثياب صفيقة مرقعة ، ونعال وضيعة مخصوفة ، يتقلدون سيوفاً بالية الأجفان ، رثة الحمائل ، على خيل بعضها عالية الظهور متقطعة الغرز ، قد بلغ بهم البعد عن المدنية إلى حد أنهم كانوا يحسبون الكافور ملحاً ، وربما استعمله بعضهم في العجين (١) فما لبثوا ان ملكوا الدنيا ، وامتلكوا ناصية امم بعيدة الشأو في المدنية ، انقلب رعاة الشاة والابل لأرقى طوائف البشر في العلم والمدنية ، والنظام ، وصار هؤلاء أساتذتهم في العلوم والآداب والأخلاق والتهذيب ، وحقت كلمة الله (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين) .

هذه القوة القاهرة بعد ذلك الضعف المخزي ، وهذا النشاط الغريب بعد ذلك الجمود العجيب ، وهذا الانتباه السريع بعد ذلك السبات العميق ، لغز من الغاز التاريخ وقد اتفقت كلمة المؤرخين

(١) قال ابن كثير : كان المسلمون يجيئون بعض تلك الدور ، فيجدون البيت ملآناً إلى اعلاه من اواني الذهب والفضة ويجدون من الكافور شيئاً كثيراً فيحسبونه ملحاً ، وربما استعمله بعضهم في العجين فوجدوه مراً حتى تبينوا امره (البداية ج ٧ ص٦٧)

على أن هذا الحادث أغرب ماوقع في التاريخ الانساني ، وإليك بعض ما قاله المؤرخون الاوربيون :

يقول المؤرخ جبون : (بقوة واحدة وبنجاح واحد زحف العرب على خلفاء اغسطس (في الروم) واصطخر (في فارس) وأصبحت الدولتان المتنافستان في ساعة واحدة فريسة لعدو لم يزل موضع الازدراء والاحتقار منهما ، في عشر سنوات من أيام حكم عمر اخضع العرب لسلطانه ستة وثلاثين ألفا من المدن والقلاع ، خربوا أربعة آلاف كنيسة ومعبد للكفار ، وأنشوو أربعة عشر ألفاً من المساجد لعبادة المسلمين ، على رأس قرن من هجرة محمد ﷺ من مكة امتد سلطان خلفائه من الهند الى المحيط الاطلانطيكي ورفرف علم الاسلام على أقطار مختلفة نائية : كفارس وسورية ومصر وأفريقيا وأسبانيا (١)

ويقول ستودارد الأميركي في كتابه حاضر العالم الاسلامي : (كاد يكون نبأ نشوء الاسلام النبأ الأعجب الذي دون في تاريخ الانسان ، ظهر الاسلام في امة كانت من قبل ذلك العهد متضعضعة الكيان ، وبلاد منحطة الشأن ، فلم يمض على ظهوره عشرة عقود ، حتى انتشر في نصف الأرض ، ممزقاً ممالك عالية الذرى مترامية الأطراف ، وهادماً أدياناً قديمة كرت عليها الحقب والأجيال ،

(١) انحطاط رومة وسقوطها المجلد الخامس ص ٤٧٤ – ٤٧٥ طبع اكسفورد .

ومغيراً ما بنفوس الأمم والأقوام وبانياً عالماً حديثاً متراص الأركان ـ هـــو عالم الاســـلام

كلما زدنا استقصاء باحثين في سر تقــدم الاسلام وتعاليه ، زادنا ذلك العجب العجاب بهراً ، فارتددنا عنه بأطـراف حاسرة . عرفنا أن سائر الأديان العظمى إنما نشأت ثم انشأت تسير في سبيلها سيراً بطيئاً ، ملاقية كل صعب ، حتى كان أن قيض الله لـكل دين منها ماأراده له من ملك ناصر ، وسـلطان قاهر ، انتحل ذلك الدين ثم أخذ في تأييده والذب عنــــه ، حتى رسخت أركانه ، ومنعت جوانبه ، بطل النصرانية قسطنطين ، والبوذية (اسوكا) والمزدكية قياكسرو ، كل منهم ملك جبار ، أيد دينه الذي انتحله بمــا استطاع من القوة والأيد ، إنمــا ليس الأمر كذلك في الاسلام ، الاسلام الذي نشأ في بلاد صحراوية ، تجوب فيافيها شتى القبائل الرحالة التي لم تكن من قبل رفيعة المكانة والمنزلة في التاريخ ، فاسرعان ماشرع يتدفق وينتشر وتتسع رقعته في جهات الأرض ، مجتازاً أفدح الخطوب واصعب العقبات ، دون ان يكون له من الأمم الأخرى عون يذكر ؛ ولا ازر مشـدود ، وعلى شدة هـذه المكاره فقـد نصر الاسلام نصراً مبيناً عجيباً ، إذ لم يكد يمضي على ظهـوره أكثر من قرنين ؛ حتى باتت راية الاسلام خفاقة من (البرانس) حتى (حملايا) ومن صحارى اواسط آسية حتى صحارى اواسط أفريقيه(٢)

(١) حاضر العالم الاسلامي ج ١ تعريب الاستاذ عجاج نويهض مقدمة في نشوء الاسلام.

ويقول مؤرخ عصري (ه ، ا ، ل فيشر) في كتابه تاريخ أوربا : (لم يكن هنالك (في جزيرة العرب قبل الاسلام) أثر لحكومة عربية أو جيش منتظم أو لطموح سياسي عام ، كان العرب شعراء خياليين محاربين ؛ وتجاراً ، لم يكونوا سياسيين ؛ إنهم لم يجـدوا في دينهم قوة تثبتهم أو توحدهم ، انهم كانوا على نظـام منحط من الشرك ؛ بعد مائة سنة حمل هؤلاء المتوحشون الخاملون لأنفسهم قـــوة عاليــة عظيمة ، إنهم فتحوا سورية ومصر ، ودوخوا وقلبوا فارس ملكوا تركستان الغربية وجزءاً من بنجاب ، انهم انتزعوا أفريقية من البيزنطيين والبربر ، وأسبانيا من القوط ، هددوا فرنسا في الغرب والقسطنطينية في الشرق ، مخرت أساطيلهم المصنوعة في الاسكندرية وموانيء سورية ، مياه البحر المتوسط . اكتسحت الجزائر اليونانيــــة وتحدت القوة البحرية للامبراطورية البيزنطية . لم يقاومهم إلا الفرس وبربر جبال الاطلس ، إنهم شقوا طريقهم بسهولة حتى صعب في بداية القرن الثامن المسيحي أن يقف في وجههم واقف ، ويعرقل سيرهم في الفتح والاستيلاء ، لم يعد البحر المتوسط بحر الروم ، بل أصبح حوضاً عثمانياً لاسيطرة فيه لغير الترك ، ووجدت الدول النصرانيــة من اقصى أوربا إلى اقصاها منـذرة مهددة بحضــارة شرقيــة مبنية على دين شرقي)(١)

ويقول مؤلف اشتراكي : (ان الانســان ليدهش إذا تأمل

(1)H.A. L. Fisher, "AHistoly OfEurope "P.P. 137,138.

السرعة الغريبة التي تغلب بها طوائف صغيرة من الرحالين ، الذين خرجوا من صحراء العرب مشتعلين بحماسة دينية على أقوى دولتين في الزمن القديم ، لم يمض خمسون سنة على بعثة محمد ﷺ حتى غرز أتباعه علم الفتح على حدود الهند في جانب ، وعلى ساحل البحر الاطلانطيكي في جانب آخر ، إن خلفاء دمشق الأولين حكموا على امبرطورية لم تكن لتقطع في أقل من خمسة أشهر على اسرع جمل على نهاية القرن الأول للهجرة كان الخلفاء اقوى ملوك العالم .

كل نبي جاء بمعجزات آية لما يقول ، وبرهاناً على صدقه ولكن محمداً ﷺ هو أعظم الأنبياء واجلهم إذ كان انتشار الاسلام أكبر آيات الأنبياء وأروعها إعجاباً وخرقاً للعادة ، إن إمبراطورية أغسطس الرومية بعدما وسعها بطلها تراجان نتيجة فتوح عظيمة في سبعة قرون ، لاتساوي المملكة العربية التي أسست في أقل من قرن ان أمبراطورية الاسكندر لم تكن في اتساعها إلا كسراً من كسور مملكة الخلفاء الواسعة ، ان الامبراطورية الفارسية قاومت الروم زهاء ألف سنة ولكنها غلبت وسقطت أمام سيف الله في أقل من عشر سنوات (١)

والآن ننظر في هذا الحادث الغريب نظراً علمياً تحليلياً ونبحث عن أسبابه الحقيقية .

(1) M. N. Roy "Historical Role Of Islam " P P 4,5,9,7

الجنود والدول في هذا العالم المادي تغلب جنود الدول في الغالب لوفرة عددها ، أو بزيادة عدتها وعتادها ، ولانها احسن في الشكة والسلاح ، وفي التنظيمات العسكرية ، وفائقة في النظام الحربي ؛ فنتناول جميع هذه العلل المادية التي يرجع اليها الفضل في انتصار الجيوش والدول عامة ونبحث فيها علة علة :

أما العدد فمعلوم انه كانت النسبة بعيدة بين المقاتلين في العدد في جميع المواقف الحاسمة ، والمعارك الفاصلة في كفاح الاسلام والنصرانية والمجوسية وكان الروم والفرس أضعاف عدد المسلمين في أكثر الوقائع . هذه اليرموك كان الروم الذين نفروا لقتال المسلمين يبلغ عددهم الى مائة ألف وثمانين ألفا وفي رواية: مائتي ألف وفي رواية: أربعين ومائتي ألف وأقل ماروى عن عددهم عشرون ومائة ألف وأكثر ماذكر عن المسلمين انهم كانوا أربعة وعشرين ألفاً كذلك كانت النسبة بعيدة في وقعة القادسية ، وهي أختها في العراق والنتيجة معلومة وما يوم حليمة بسر .

وقد اعترف بقلة المسلمين ووفرة جنود الروم والفرس المؤرخون جميعاً ولم يعللوا الفتح الاسلامي الغريب في التاريخ بكثرة عدد مقاتلة المسلمين جاء في الفصل الرابع للأستاذين (غود فروا دمونبين) و « بلاتوف » :

« إن العرب الذين أفاضوا من الجزيرة لفتح الأمصار لم يكونوا

عصائب لاتحصى ولا تعد ،تدفقت على الشرق المتمدن . فقد أحصى مؤرخو العرب الجيش الأول للمسلمين في اليرموك بثلاثة آلاف ثم ارسل اليهم الخليفة بنجدة أبلغتهم ٧٥٠٠ مقاتل وأخيراً تتام عددهم ٢٤ ألفاً وأما عدد الروم فقال العرب : إنه كان مائة ألف وقيل ١٢٠ ألفاً وقيل ٢٠٠ ألف مقاتل ولم يزده مؤرخو بيزنطة على ٤٠ ألفاً . وعلى كل حال ، كان العدد الأكبر لأعداء العرب ، وهكذا في حروب فارس » (١)

ومعلوم أن جزيرة العرب قليلة العمران بالنسبة إلى مساحتها واتساع رقعتها ، ومعظمها صحراء ، ورمال وعثاء ، وارض قاحلة جرداء . أما البلاد التي زحف عليها المسلمون ، ورموا فيها بأنفسهم ، فهي من أخصب بلاد الله ، مستبحرة العمران ، مكتظة بالسكان . وكانت خليتها تعسل حيناً بعد حين ، وتقطع بعوثاً إثر بعوث . وتتدفق سيول من الجيوش والمقاتلة ، وتأتيهم الميرة من كل مكان ، لاتكاد تنتهي . وكان العرب الغرباء ، كنقطة مغمورة في بحار من الأعداء ، نازحين عن بلادهم ، منقطعين عن مركزهم . ولا يصلهم المدد إلا بشق الأنفس ، وبعد شهور ، لايجدون من الميرة إلا ما يتغلبون عليه ، وينتزعون من أيدي أعدائهم انتزاعاً ،

(١) حاضر العالم الاسلامي : حواشي الأمير شكيب ارسلان ج ١ ص ٢٩

فلو تطوعت جزيرة العرب كلها لقتال الروم والفرس ، ونفر جميع أهاليها للجهاد في سبيل الله — على أن ذلك من المستحيل — لما وقعوا من العالم النصراني والمجوسي - وهما أكثر من نصف الأرض المعمورة — بمكان ، فكيف والذين تطوعوا للجهاد ما كانوا نصف عشر عمران الجزيرة ؟ .

أما العدد والعتاد ، فكان العرب أفقر فيها وأقل منهم في العدد . فلم تكن هناك جنود مرتزقة ، ولاجيوش منظمة ، تعبئها الحكومة ، وتسلحها من عندها ، ثم تبعثها كاملة السلاح، تامة الجهاز — انما كان متطوعون ؛ يجهزون أنفسهم ، وينفرون شوقاً إلى الجهاد في سبيل الله ، ورجاء ثوابه . ومنهم من لايجد راحلة ، ويلتمس عند غيره فلا يجد ، فيقعد متلهفاً على ما يفوته من سعادة الجهاد في سبيل الله ؛ وقد أنزل الله فيهم (ولا على الذين اذا ما اتوك لتحملهم قلت لا اجد ماأحملكم عليه ، تولوا واعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ماينفقون — براءة) .

وكان المسلمون ، تزدريهم اعين الروم والفرس لما خرجوا لقتالهم ، وكانوا يسخرون من سلاحهم ونبالهم وثيابهم ويضحكون . قال ابو وائل — احد الذين شهدوا القادسية — كان الفرس يقولون للمسلمين : لا يد لكم ، ولا قوة ، ولا سلاح ، ما جاء

بكم ؟ ارجعوا ، قلنا : ما نحن براجعين . يضحكون من قبلنا ، ويقولون : دوك دوك ، وشبهونا بالمغازل(١) .

قال ابن كثير : وكان سعد قد بعث طائفة من أصحابه الى كسرى يدعونه الى الله قبل الوقعة ، فاستأذنوا على كسرى ، فأذن لهم . وخرج أهل البلد ينظرون الى أشكالهم ، وأرديتهم على عواتقهم ، وسياطهم بأيديهم ، والنعال في أرجلهم ، وخيولهم الضعيفة وخبطها الأرض بأرجلها ، وجعلوا يتعجبون منها غاية العجب ، كيف مثل هؤلاء يقهرون جيوشهم مع كثرة عددها وعددها (٢) .

ويقول « ماكس مايرهوف » في تأليفه (العالم الاسلامي) :

« يكاد يكون مستحيلاً أن نفهم : كيف أن أعراباً منقسمين الى عشائر ، ليست عندهم العدد والأعتدة اللازمة ، يهزمون في مثل هذا الوقت القصير جيوش الرومان والفرس الذين كانوا يفوقونهم مراراً في الأعداد والعتاد ، وكانوا يقاتلونهم وهم كتائب منظمة (٣) » .

ومما قيل في تعليل غلبة المسلمين ؛ ان العرب كانوا فائقين

(١) البداية والنهاية ج ٧ ص ٤
(٢) ايضاً ج ٧ ص ٤٢
(٣) حاضر العالم الاسلامي : حواشي الأمير شكيب ارسلان ، ج ١ ص ٢٩

في نظامهم الحربي على الروم والفرس في ذلك العصر . وكانت كتائبهم أحسن تنظيماً وتدريباً ، وأفضل نظاماً عسكرياً ، وأكثر انقياداً لأمرائها وقوادها من العساكر الرومية والفارسية ، وأن الفضل في انتصار العرب ، مع قلتهم ، وانكسار الروم والفرس ، رغم كثرتهم ، يرجع الى مراس العرب للقتال ، وضراوتهم بالحروب ، وولوعهم بالغزو والنهب ، ونشأتهم الجاهلية الأولى ، النشأة الحربية المحضة .

هذا الكلام يشبه أن يكون وجيهاً وأكثر صواباً من التعليلات السابقة . ولكنك اذا انتقدته ، كباحث ومؤرخ ، وجدته مغالطة كبيرة ، يغالط بها الكتاب الاوربيون ، ويتعللون بها . وقد يفهمون ، وقد لا يفهمون .

قد ثبت في تواريخ القرون الوسطى أن الروم (وكذا الفرس) كانوا راقين في نظامهم الحربي في ذلك العصر ، وقد بلغت الدولة البيزنطية في بداية القرن السابع المسيحي زهوها وأوج فتوحها الحربية ؛ ففي ذلك العهد دحر الروم الفرس وردوهم على أعقابهم ، وجاسوا خلال الديار . وعبر هرقل جبال الكرد ونهر دجلة غازياً منتصراً . وبعد حرب دامية في ساباط ومعركة فاصلة في نينوى دخل دستجرد وتقدم إلى المدائن ، وفرز علم الفتح الرومي في قلب فارس ، وذلك كله في سنة ٦٢٥ م يعني قبل

زحف المسلمين على الشام باثنتي عشرة سنة فقط .

وقد أفادت هذه الحروب الطاحنة التي بدأت من سنة ٦٠٣ الفريقين (الروم وفارس) من جهة الحرب والتدريب كثيراً ، وقد استفاد الفريقان أساليب جديدة للقتال ، وحنكة وحسن بلاء في الحرب . وتعلم كل فريق منهما من الآخر ، كما كان الشأن في الحروب الصليبية في القرون الوسطى .

وقد اعترف جيبون ، مؤرخ رومة الكبير ، بفضل الروم على العرب في الحروب ونظامها ، فقد قال في كتابه (المجلد الخامس ص ٤٧٨) :

« أنا ألاحظ هنا ، وسأكرره مراراً ، أن هجوم العرب ، وقتالهم ، لم يكن مثل الرومان واليونان الذين كانت لهم رجالة قوية مستحكمة ، كانت القوة العسكرية للعرب مركبة من فرسان ورماة ، وكانت الحرب التي قد تقاطعها مبارزات شخصية ، ومناوشات من القتال ، قد تستمر وتطول بغير حادثة فاصلة إلى عدة أيام » .

أما ماقيل من مراس العرب للقتال ، وتدريبهم عليها بفضل حروبهم القبلية التي كادت تكون مستمرة ، وتمكنهم من الانتصار على الروم والفرس ، فلم تكن هذه المناوشات والغزوات الطائفية بحيث يتمكن بها العرب من قهر الامبراطوريتين الكبيرتين ::

الرومية والفارسية ، وقد خضع العرب ، مع هذا كله ، للحبشة ولفارس في جنوب جزيرة العرب ، وانسحبوا أمام جيوش أبرهة في زحفه على مكة . وأن الله هو الذي تولى حراسة بيته ، وكفى قريشاً القتال . وجعل أصحاب الفيل كعصف مأكول . ولماذا لم يجسر العرب على الخروج من جزيرتهم ، وغزو البلاد وفتحها في هذه القرون الطويلة التي قضوها في شبه جزيرتهم في خمود وخمول تام ؟ لماذا لم يهاجموا الروم والفرس كما فعلوا بعد بعثة محمد ﷺ بغير تراخ ؟ ولماذا لبثوا الأحقاب والأجيال الطوال « معكوفين على رأس حجر بين الأسدين فارس والروم » كما يقول قتادة أحد التابعين الكبار ؟ (١)

أما ما قيل عن النظام ، فلا ننكر حسن نظام العرب في حروبهم وغزواتهم ، وروح التعاون والتفادي الساري في جنودهم ، والطاعة والانقياد لأمراء الجيوش وقوادها ، والتفاني والاستماتة في سبيل الله . ولكن يعلم الخبير ، أن النظام ليس شيئاً صناعياً ميكانيكياً يحصل بمجرد تنظيمات عسكرية ، وفنون حربيه ، وقواعد رياضية ، ولو صففت الحجارة تصفيفاً بديعاً ، أو أقيمت العمد والسواري على نظام فني رياضي كامل ، لم تنفع شيئاً . وقد قرأت في التاريخ ، أن الروم والفرس ، قد كانوا في بعض المواقف

(١) تفسير ابن جرير ج ٤ ص ٢٣

الجليلة ، يسلسلون أنفسهم «ويحفرون لهم في الأرض ، لئلا يندحروا ، أو ينسحبوا من ميدان القتال ! ثم لا يغني عنهم هذا شيئاً . فليس الشأن كله في النظام في الحرب ، إنما الشأن الكبير التأثير ، البليغ للروح . والمبدأ والغاية التي يقاتل لأجلها الجنود ، وتمكنها من النفوس ، وهي منبع القوة الخارقة للعادة ، ومبعث الشجاعة التي تبهر العقول ، وسبب الفتوح العظيمة التي يندهش لها المؤرخون والفلاسفة .

وعن هذا المنبع ، نبحث في نفوس العرب الأولين الذين خرجوا لفتح العالم ؟ وفتحوا نصف الأرض في نصف القرن .

منبع هذه القوة ، وسبب هذا الانقلاب العظيم الذي لا يوجد له مثيل في التاريخ ، أن العرب أصبحوا بفضل تعليم محمد ﷺ أصحاب دين ورسالة ، فبعثوا بعثاً جديداً ، وخلقوا من جديد ، وانقلبوا في داخل أنفسهم ، فانقلبت لهم الدنيا غير ما كانت ، وانقلبوا غير ما كانوا . رأوا إلى العالم حولهم ـ وطالما رأوه في جاهليتهم بدهشة واستغراب ـ فاذا الفساد ضارب أطنابه ، وإذا الظلم ماد رواقه ، واذا الظلام مخيم على العالم كله ، وكل شيء في غير محله ، فمقتوه وأبغضوه ، ورأوا الى الامم وطوائف البشر حول جزيرتهم ـ وطالما رأوها بتعظيم وإجلال وغبطة واكبار ـ فاذا أنعام ودواب في صورة البشر (يأكلون كما تأكل

الأنعام والنار مثوى لهم) واذا صور ودمى قد كسيت ملابس الانسان ، فاستهانوا بهم وبما هم فيه من ترف ونعيم وزخارف وزينة ، وقرأوا قول الله تعالى : (زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه) (ولا تعجبك أموالهم ولا أولادهم انما يريد الله ليعذبهم بها في الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون) .

وعلموا أن الله قد ابتعثهم ليخرجوا الناس من الظلمات الى النور ، ومن عبادة العباد الى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا الى سعتها ، ومن جور الأديان الى عدل الاسلام . واورثهم ارضهم وديارهم وأموالهم ، وأرضاً لم يطؤوها ، واستخلفهم في الأرض ، ومكنهم فيها ، وقرأوا قول الله تعالى : (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون) وقوله (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً) وتعلقوا بقول نبيهم ﷺ :

« إن الله زوى لي الارض فرأيت مشارقها ومغاربها . وإن أمتي سيبلغ ملكها مازوى لي منها واعطيت الكنزين الأحمر والأبيض » (١)

(١) رواه الترمذي .

وقوله : « إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده ، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده . والذي نفسي بيده ، لتنفقن كنوزهما في سبيل الله » (١)

وعرفوا أن الله قد ضمن لهم النصر ، ووعدهم بالفتح ، فوثقوا بنصر الله ووعد رسوله ، واستهانوا بالقلة والكثرة ، واستخفوا بالمخاوف والأخطار ، وذكروا قول الله تعالى : (ان ينصركم الله فلا غالب لكم ، وان يخذلكم ، فمن ذا الذي ينصركم من بعده ؟ وعلى الله فليتوكل المؤمنون .) وقوله (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ، والله مع الصابرين)

وقد فطن لهذه الحقيقة بعض معاصري المسلمين وأعدائهم وأهل النظر والتمييز في ذلك العصر من الروم والفرس . فمن ذلك ماروى ابن كثير ، أن هرقل لما انتهى اليه خبر زحف المسلمين قال لأهل الشام : ويحكم إن هؤلاء أهل دين جديد ، وإنهم لاقبل لأحد بهم ، فأطيعوني وصالحوهم بما يصالحونكم على نصف خراج الشام ، ويبقى لكم جبال الروم ، وإن أنتم أبيتم ذلك ، أخذوا منكم الشام ، وضيقوا عليكم جبال الروم (٢)

أما عقيدة المسلمين فهي أنهم مبعوثون إلى الامم ، موكلون باخراج الناس الى عبادة الله وحده ، وأن الله متولي نصرهم ،

(١) رواه الترمذي

(٢) البداية والنهاية ج ٧ ص ٥

ضامن لظفرهم وهذا ما تحسه في كل ماكان يصدر عن المسلمين من كلام وفعال ، ومن ثقتهم وسكينة قلوبهم .

ومن ذلك ماروي أن الامراء لما كتبوا إلى ابي بكر وعمر في اليرموك يعلمونهما بما وقع من الأمر العظيم ، وما يقابلون من خطر داهم ، وعدد لاقبل لهم به . كتب اليهم : أن اجتمعوا وكونوا جنداً واحداً والقوا جنود المشركين . فأنتم أنصار الله ، والله ناصر من نصره ، وخاذل من كفره . ولن يؤتى مثلكم عن قلة ، ولكن من تلقاء الذنوب فاحترسوا منها (١) :

ولما استشار عمر أصحابه في مسيره الى العراق بوقعة نهاوند ، قال له علي بن أبي طالب : ياأمير المؤمنين ، إن هذا الأمر لم يكن نصره ولاخذلانه بكثرة ولا قلة . هو دينه الذي أظهر ، وجنده الذي أعزه وأمده بالملائكة حتى بلغ ما بلغ فنحن على موعود من الله ، والله منجز وعده ، وناصر جنده (٢)

ولذلك كانوا يخاطرون بأنفسهم ، ويأتون بأعاجيب وأعمال خارقة للعادة ، ثقة بنصر الله واعتماداً على موعوده . حتى أنهم خاضوا بخيولهم في دجله ، وكانوا يتحدثون مطمئنين ، كأنهم سائرون

(١) البداية والنهاية ج ٧ ص ٥

(٢) البداية والنهاية ج ٧ ص ١٠٧

على البر . وكان منظراً غريباً . وجعل الفرس يقولون : ديوان آمدند ، يعنون الجن والعفاريت ، ويقولون : ديوانه ديوانه ، يعنون المجانين ، وكان الذي يساير سعد بن أبي وقاص في الماء سلمان الفارسي ، فجعل سعد يقول : حسبنا الله ونعم الوكيل . والله لينصرن الله وليه ، وليظهرن الله دينه ، وليهزمن الله عدوه . ان لم يكن في الجيش بغي أو ذنوب تغلب الحسنات . فقال له سلمان : ان الاسلام جديد . ذللت لهم والله البحور ، كما ذلل لهم البر . أما والذي نفس سلمان بيده ، ليخرجن منه أفواجاً كما دخلوا أفواجاً . فخرجوا منه كما قال سلمان ؛ لم يغرق منهم أحد ، ولم يفقدوا شيئاً (١)

بعثت هذه العقيدة النفيسة طمأنينة في أنفسهم ، وسكينة في قلوبهم ، وشجاعة خارقة للعادة ، واستهانة بالعدد والعدد ، وعدم عبادة للمادة ، وعدم اتخاذ الأسباب أرباباً . وعرفوا أنهم يقاتلون بقوة الدين ، ويظفرون ويغلبون ببركة الاسلام ، فكانوا شديدي الاحتفاظ ، كثيري الاعتداد بها ، يتمثل ذلك فيما قال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه ؛ روى يونس عن ابن اسحاق : أن المسلمين بلغهم أن هرقل نزل بمآب في مائة ألف من الروم ، ومائة ألف من المستعربة (والمسلمون لايزيدون على ثلاثة آلاف) فلما بلغ

(١) البداية والنهاية ج ٧ ص ٦٦

المسلمين ذلك ، أقاموا على معان ليلتين ، ينظرون في أمرهم . وقالوا : نكتب الى الله ﷺ نخبره بعدد عدونا ؛ فاما أن يمدنا بالرجال ، وإما أن يأمرنا بأمره ، فنمضي له . قال : فشجع الناس عبدالله بن رواحة وقال : ياقوم والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون ، الشهادة ، ومانقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به . فانطلقوا ؛ فانما هي إحدى الحسنيين ، إما ظهور ، وإما شهادة . قال : فقال الناس : قد والله صدق ابن رواحه ، فمضى الناس (١)

كانوا واثقين بما وعدهم به رسولهم - ﷺ - من الفتوح العظيمة ، فاذا رأوا من ذلك شيئاً قالوا : (هذا ماوعدنا الله ورسوله ، ، وصدق الله ورسوله ، ومازادهم إلا إيماناً وتسليماً) .

جاء رجل إلى أبي عبيدة يوم اليرموك فقال : إني قد تهيأت لأمري ، فهل لك من حاجة إلى رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم ، تقرئه عني السلام وتقول : يارسول الله ، إنا قد وجدنا ماوعدنا ربنا حقاً (٢)

وقد بلغوا في قلة الاهتمام بالعدد ، والاستخفاف بشأن العدو وكثرته ، حتى كأنهم من حديد ، والعدو من طين وخزف ، أو كأنهم مناجل والعلوج (٣) حقول ومزارع ، قد أينعت وحان حصادها .

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٤٣
(٢) البداية والنهاية ج ٧ ص ١٢
(٣) العلج الرجل الضخم القوي من كفار العجم وقد يطلق على الكافر عموماً .

قال المؤرخون : لما أقبل خالد من العراق ، قال رجل من نصارى العرب لخالد بن الوليد : ما أكثر الروم وأقل المسلمين ؟ فقال خالد : ويلك ، أتخوفني بالروم ؟ إنما تكثر الجنود بالنصر ، وتقل بالخذلان ، لا بعدد الرجال . والله لوددت أن الأشقر برأ من توجعه ، وأنهم أضعفوا في العدد ـ وكان فرسه قد حفا واشتكى في مجيئه من العراق . (١)

وقد ارتفع هؤلاء ، وعلت هممهم ، وكبرت نفوسهم ، وعظم الدين والحقيقة والأخلاق في نظرهم ، حتى صغرت الدنيا وزخارفها في عيونهم ، وهان أهلها عليهم ، فكانوا يرون إلى أبهة الملوك ، وفخفخة السلاطين ، ومافيه أغنياء هاتين المدينتين ومترفوها من الأثاث والرياش وزخارف الدنيا ، كأنهم يرون إلى لعب الصبيان ، وكأنهم يرون الدمى والبنات المصنوعة من ورق أو قماش ، في مواكبها وزينتها ، لا يهولهم شيء ، ولا يعظم في عينهم شيء .

أرسل سعد قبل القادسية ربعي بن عامر رسولاً الى رستم قائد الجيوش الفارسية وأميرهم ، فدخل عليه ، وقد زينوا مجلسه بالنمارق المذهبة ، والزرابي الحرير ، وأظهر اليواقيت واللآلىء الثمينة ، والزينة العظيمة ، وعليه تاجه وغير ذلك من الأمتعة

(١) البداية والنهاية ج ٧ ص ٩

الثمينة ، وقد جلس على سرير من ذهب ، ودخل ربعي بثياب صفيقة ، وسيف وترس وفرس قصيرة . ولم يزل راكبها ، حتى داس بها على طرف البساط ، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد ، وأقبل ، وعليه سلاحه ودرعه ، وبيضة على رأسه . فقالوا له : ضع سلاحك . فقال : إني لم آتكم ، وإنما جئتكم حين دعوتموني ، فإن تركتموني هكذا ، وإلا رجعت . فقال رستم : ائذنوا له . فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق ، فخرق عامتها ، فقالوا له : ما جاء بكم ؟ فقال : الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا الى سعتها ، ومن جور الأديان الى عدل الاسلام . فأرسلنا بدينه الى خلقه ، لندعوهم اليه ؛ فمن قبل ذلك ، قبلنا منه ، ورجعنا عنه ، ومن أبى ، قاتلناه أبداً حتى نفضي الى موعود الله . قالوا : وما موعود الله ؟ قال : الجنة لمن مات على قتال من أبى ، والظفر لمن يبقى . فقال رستم : قد سمعت مقالتكم ، فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا ؟ قال : نعم . كم أحب اليكم يوماً أو يومين ؟ قال : لا بل حتى نكاتب أهل رأينا ، ورؤساء قومنا . فقال : ما سن لنا رسول الله ﷺ أن نؤخر الاعداء عند اللقاء أكثر من ثلاث ، فانظر في أمرك وأمرهم ، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل . فقال : أسيدهم أنت ؟ قال : لا . ولكن المسلمون كالجسد الواحد يجير أدناهم على أعلاهم . فاجتمع رستم برؤساء قومه فقال : هل رأيتم قط أعز وأرجح من كلام هذا الرجل ؟ فقالوا : معاذ الله

أن تميل الى شيء من هذا ، وتدع دينك إلى هذا الكلب . أما ترى إلى ثيابه ؟ فقال : ويلكم لا تنظروا الى الثياب ، وانظروا إلى الرأي والكلام والسيرة ، إن العرب يستخفون بالثياب والمأكل ويصونون الأحساب(١) .

دخل المغيرة بن شعبة على رستم ، وقعد معه على السرير ، فنخروا وصاحوا ، فقال : إن هذا لم يزدني رفعة ، ولم ينقص صاحبكم . فقال رستم : صدق(٢)

وكان من اكبر انصار المسلمين أخلاقهم العالية ، وسيرتهم الملكية ، فكانوا يمتازون بها ، ويعرفون بها أينما رحلوا ونزلوا . وكانت هذه الاخلاق طليعة جيوشهم ، تسخر لهم القلوب والنفوس وتشرح لهم الصدور ، قبل أن تعمل سيوفهم ورماحهم ونبالهم ، والذين كانوا يشهدونها ويجربونها ، كانوا يشهدون أن هؤلاء سيغلبون ويملكون الدنيا ، وأن الفرق بينهم وبين أقرانهم ، كالفرق بين البهائم والملائكة .

روى أحمد بن مروان المالكي في المجالسة ، بسنده عن أبي إسحاق قال : كان أصحاب رسول الله ﷺ لا يثبت لهم العدو

(١) البداية والنهاية ج ٧ ص ٤٠
(٢) البداية والنهاية ج ٧ ص ٤٠

فوق ناقة عند اللقاء ، فقال هرقل وهو على انطاكية ، لما قدمت الروم منهزمة : ويلكم اخبروني عن هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم ، أليسوا بشراً مثلكم ؟ قالوا : بلى . قال : فأنتم أكثر أم هم ؟ قالوا : بل نحن أكثر أضعافاً في كل موطن . قال : فما بالكم تنهزمون فقال شيخ من عظمائهم : من أجل انهم يقومون الليل ، ويصومون النهار ، ويوفون بالعهد ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ويتناصفون بينهم ، ومن أجل أنا نشرب الخمر ، ونزني ، ونركب الحرام ، وننقض العهد ، ونغصب ، ونظلم ، ونأمر بالسخط ، وننهى عما يرضي الله ، ونفسد في الارض . فقال : أنت صدقتني.

وسأل هرقل هذا رجلاً كان قد أسر مع المسلمين ، فقال : أخبرني عن هؤلاء القوم . فقال : أخبرك كأنك تنظر اليهم ؛ هم فرسان بالنهار ، رهبان بالليل ، لا يأكلون في ذمتهم إلا بثمن ولا يدخلون إلا بسلام ، يقفون على من حاربوا ، حتى يأتوا عليه فقال : لئن كنت صدقتني ليملكن موضع قدميّ هاتين (١)

ووصف رجل من الروم المسلمين لرجل من أمراء الروم فقال: جئتك من عند رجال دقاق ، يركبون خيولاً عتاقاً ، أما الليل فرهبان ، وأما النهار ففرسان ، يريشون النبل ويبرونها ، ويثقفون القنا ، لو حدثت جليسك حديثاً ما فهمه عنك ، لما علا من أصواتهم

(١) البداية والنهاية ج ٧ ص ٥٣

بالقرآن والذكر . قال : فالتفت إلى أصحابه وقال : أتاكم منهم مالا طاقة لكم به (١)

حببتهم هذه الاخلاق الى اعدائهم الذين كانوا يقاتلونهم ، حتى ان كان هؤلاء ليؤثرونهم على بني جلدتهم ، وأبناء ملتهم ، ويتمنون لهم الظفر ، ويدفعون عنهم العدو ، ويتطوعون لمصالحهم .

قال البلاذري في فتوح البلدان : حدثني أبو حفص الدمشقي قال : حدثنا سعيد ابن عبد العزيز قال : بلغني أنه لما جمع هرقل للمسلمين الجموع ، وبلغ المسلمين إقبالهم اليهم بوقعة اليرموك ، ردوا على أهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الخراج ، وقالوا : قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم ، فقال أهل حمص لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ، ولندفعن جنود هرقل عن المدينة مع عاملكم . ونهض اليهود فقالوا : والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص إلا أن نغلب ونجهد ، فأغلقوا الأبواب ، وحرسوها ، وكذلك فعل أهل المدن التي صولحت من النصارى واليهود وقالوا : ان ظهر الروم وأتباعهم على المسلمين ، صرنا الى ما كنا عليه ، وإلا فانا على أمرنا مابقي للمسلمين عدد . فلما هزم الله الكفرة ، وأظهر المسلمين

(١) البداية والنهاية ج ٧ ص ١٦

فتحوا مدنهم ، وأخرجوا المقلسين(١) فلعبوا وأدوا الخراج(٢) .

* * * *

هذا ولما طال على المسلمين الأمد ، وقست قلوبهم ، ونسوا وتناسوا ما لأجله بعثهم الله على كثرة من الناس ، وتوافر من أمم الأرض ، وهو قوله تعالى : (كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله)

ونسوا ما لأجله خرجوا من جزيرتهم ، يخرجون الناس من عبادة العباد الى عبادة الله وحده ، وصاروا يحكمون الناس حكم الناس على الناس وصاروا يعيشون حياة لاهية حرة ، حياة من لايعرف نبياً ، ولا يؤمن برسالة ووحي ، ولا يرجو حساباً ، ولا يخشى معاداً ، وأشبهوا الأمم الجاهلية التي خرجوا يقاتلونها بالأمس ، عادوا فقلدوها في مدنيتها ، واجتماعها ، وسياستها ، وأخلاقها ، ومناهج حياتها ، وفي كثير مما مقتها الله لأجله ، وخذلها ، وأصبحوا لا همّ لهم ولا شغل ، إلا الأكل والشرب والتناسل ، وأصبحوا كرعايا الناس ، ليس لهم فرقان ولا نور يمشون به بين الناس ، وأشبهت ملوكهم وأمراؤهم جبابرتها وفراعنتها ، وأغنياؤهم مترفيها وأكابر مجرميها ، وكاد يسبق فجارهم فجارها ، تحاسد وبغضاء ، ومنافسة في السلطان ،

(١) قلس القوم استقبلوا الولاة عند قدومهم بضرب الدف والغناء واصناف اللهو .
(٢) فتوح البلدان ص ٧ طبع بريل .

وتكالب على حطام الدنيا ، وإخلاد الى الترف والنعيم ، وإعراض عن الآخرة وسفك للدماء وهتك للأعراض ، وهضم للحقوق ، وغدر بالعهود والذمم ، وتعدٍ عن حدود الله ، واعانة للظالم ، وجنف في الحكومات والمظالم ، وتبذير لأموال الله ، وعموم الفواحش والمنكرات ، وابتداع للجرائم ، وابداع في الجناية ، مما يحتاج بسطه إلى مجلدات ، فهانوا إذاً على الله مع أسمائهم الاسلامية ورغم وجود الصالحين فيهم ، وظهور بعض الشعائر الدينية ، والواجبات الشرعية في بلادهم ، وهانوا على الناس ، رغم مملكتهم الواسعة ، وجيوشهم الكثيفة ، وخزائنهم العامرة ، ورغم تقدمهم في الحضارة ومظاهرها الكثيرة ، فقل إكرام الناس لهم ، وهيبتهم إياهم ، وتجاسروا عليهم ؛ قال رتبيل ملك رخيج وسجستان لرسل يزيد ابن عبد الملك — وقد جاؤوا اليه يطالبونه بالخراج — : « مافعل قوم كانوا يأتون خماص البطون ، سود الوجوه من الصلاة ، نعالهم خوص » ؟ قالوا : انقرضوا . قال : « اولئك أوفى منكم عهداً وأشد بأساً ، وان كنتم أحسن منهم وجوهاً » ثم لم يعط أحداً من عمال بني أمية ولا عمال أبي مسلم على سجستان من تلك الاتاوة شيئاً(١)

فاذا كان هذا في القرن الثاني فما ظنك بقرون بعده ؟ ؟

حتى إذا بلغ السيل الزبي ، وتضاعف كل ماذكرنا ، وأفسد

(١) فتوح البلدان ص ٤٠١ طبع بريل

المسلمون في الأرض بعد اصلاحها ، وآسفوا الله ، بعث عليهم عباداً له أولي بأس شديد ، فجاسوا خلال الديار ؛ سلط عليهم المغول والتتار أشقى الأمم وأخملها وأجهلها وأوحشها ، فوضعوا فيهم السيف ، وأجروا من دمائهم سيولاً وأنهاراً ، وأقاموا من رؤوسهم صروحاً وتلالاً ، وفعلوا بهم الأفاعيل ، وأجلسوهم الخوف ، فتمكن من قلوبهم الوهل والجبن ، حتى أصبحوا لا يصدقون بهزيمة التتر قال ابن الاثير : سمع عن بعض أكابرهم أنه قال : من حدثك أن التتر انهزموا فلا تصدقه . قال : ووقع رعبهم في قلوب الناس حتى كان احدهم اذا لقي جماعة يقتلهم واحداً واحداً ، وهم دهشون . ودخلت امرأة من التتر داراً وقتلت جماعة من أهلها وهم يظنونها رجلاً ، ودخل واحد منهم درباً فيه مائة رجل فما زال يقتلهم واحداً واحداً حتى أفناهم ، ولم يمد أحد يده اليه بسوء ، ووضعت الذلة على الناس فلا يدفعون عن نفوسهم قليلاً ولا كثيراً ، نعوذ بالله من الخذلان . وحكي ان احدهم أخذ رجلاً ولم يجد ما يقتله به ، فقال له : ضع رأسك على هذا الحجر ، ولا تبرح ، فوضع رأسه وبقي الى ان اتى التتري بسيف وقتله . قال ابن الاثير : وامثال ذلك كثيرة .

واليك ما قال ابن الاثير قبل ان يسرد وقائع هذه النازلة :

« لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة ،

استعظاماً لها ، كارهاً لذكرها ، فأنا اقدم إليه رجلاً وأؤخر أخرى، فمن الذي يسهل عليه ان يكتب نعي الاسلام والمسلمين ؟ ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك ؟ فياليت أمي لم تلدني ، وياليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً . . . هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى ، والمصيبة الكبرى التي عقمت الايام والليالي عن مثلها . عمت الخلائق ، وخصت المسلمين ، فلو قال قائل : ان أهل العالم منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم الى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقاً ، فان التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها . . . ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا الخ »

ولكن مثل هذه الحادثة لم تستطع ان تنبه المسلمين ، ولم يفيقوا من سكرتهم ، ولم يغيروا ما بأنفسهم حتى يغير الله مابهم وحق عليهم قول ربهم (لَعَمْرُكَ انهم لفي سكرتهم يعمهون) وقوله (فلولا اذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون) وقوله : (ولقد اخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون) وما زالوا منهمكين فيما هم فيه من غفلة ولهو وظلم حتى يقول ابن الاثير :

« فالله تعالى ينصر الاسلام والمسلمين نصراً من عنده . فما نرى فى ملوك الاسلام من له رغبة في الجهاد ، ولا في نصرة

الدين ، بل كل منهم مقبل على لهوه ولعبه ، وظلم رعيته . وهذا أخوف عندي من العدو . وقال الله تعالى : (واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) .

ومما يجب ان يلاحظ القارىء ويعتبر به المعتبر ان المسلمين في هذه الظلماء التي غشيتهم ، والفتنة التي عمتهم ، كلما أفاقوا من سكرتهم ، وأصلحوا شأنهم ، وأزاحوا العلل ، وصمدوا في وجه العدو ، واستنزلوا النصر ، هزموا التتر الذين لم يكونوا يعرفون الهزيمة ، ولا يصدق الناس بانهزامهم ، فقد هزمهم جلال الدين خوارزمشاه ثلاث مرات ، وهزمهم الظاهر بيبرس غير مرة ، وهزمهم الملك الناصر صاحب مصر بمرج الصفر . وقال السيوطي عن وقعة عين جالوت : (فهزم التتار شر هزيمة ، وانتصر المسلمون ولله الحمد وقتل من التتار مقتلة عظيمة ، وولوا الادبار ، وطمع الناس فيهم ، يتخطفونهم وينهبونهم)

ولم يزدد المسلمون الا ضعفاً ، ولم تزدد أخلاقهم على مر الايام الا انحطاطاً وتدهوراً ، ولا أحوالهم وشؤونهم الا فساداً ، حتى أصبحوا أمة جوفاء ، لا روح فيها ولا دم . وكانوا كصرح عظيم من خشب منخور قائم ، لايزال يوري الناس ويهول من بعيد ، أو كدوحة قد تأكلت جذورها ، ونخر جذعها العظيم ، ولم تنقلع بعد . وأصبحت بلادهم مالاً سائباً لامانع له ، وأصبحت دولهم فريسة لكل مفترس ، وطعمة لكل آكل ، وحق قول النبي ﷺ :

(يوشك الامم ان تداعى عليكم كما تداعى الأكلة الى قصعتها فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذ ؟ قال : بل انتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل . ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن في قلوبكم الوهن . قال قائل : يارسول الله وما الوهن ؟ قال : حب الدنيا وكراهة الموت[1]) .

واستمر المسلمون بهذه الحال وزيادة ، حتى أغار عليهم في القرن الثامن عشر المسيحي الأمم الأوربية النصرانية الجاهلية ، المتحضرة الوحشية ، الكاسية العارية[2] فسلبوها مفاتيح ملكهم ، واعتزلوا في مصلحتها عن قيادة العالم .

وقد بلغ المسلمون من الانحطاط الخلقي منزلة أن وجد فيهم أفراد خانوا أمتهم ، وشروا بلادهم بثمن بخس دراهم معدودة ، وتطوعوا في جنود العدو ، يفتحون بلادهم للأجنبي على حسابهم .

ولكن هذا الهجوم الغربي كان أشد تأثيراً ، وأعمق أثراً ، وأبعد مدى من الهجوم الشرقي (المغولي والتتاري) فكاد يخمد كل جمرة في قلوبهم لم تخمدها العواصف طيلة هذه القرون ، وبقيت كامنة في الرماد تخبو مرة وتلتهب أخرى .

فتش عقلاؤهم عن منابع القوة الكامنة في نفوس المسلمين

(١) تاريخ الخلفاء رواه ابو داود عن ثوبان رضي الله عنه .
(٢) المطلع على تاريخ حضارة هذه الامم وطبيعتها يصدق هذه الصفات المتناقضة

وقلوبهم فوجدوا أن اكبر منبع للقوة والحياة هو (الايمان) وشهدوا ما فعل الايمان قديماً ، وما أظهر من معجزات وخوارق وما هو خليق بأن يفعل ، ففادوه ، وسلطوا على المسلمين عدوين هما افتك بهم ، وأضرّ لهم من المغول والتتار ومن الوباء الفاتك. الاول : هو الشك وضعف اليقين الذي لا شيء ادعى للضعف والجبن منه ، والثاني : مانعبر عنه بالذل النفسي ، وهو أن صار المسلمون يشعرون بالذل والهوان في داخل انفسهم ، وفي اعماق قلوبهم ، ويزدرون بكل ما يتصل بهم من دين وتهذيب وأخلاق ، ويستحيون من انفسهم ، ويؤمنون بفضل الأوربيين في كل شيء ويعتقدون فيهم كل خير ، ولا يكادون يعترفون بنقص وعيهم في ناحية من نواحي الحياة ، ولا يصدقون بانهزامهم وفشلهم في ساعة من ساعات الدهر ، وإذا تمكن هذا الذل من نفوس أمة ، فقد ماتت ، وان كنت تراها تغدو وتروح وتأكل وتعيش .

وابتلي المسلمون في هذه المرة - بتأثير الحضارة الغربية والفلسفة الغربية - بعبادة المادة ، وحب الدنيا ، والجري وراء النفع العاجل وتقديم المصالح الشخصية ، والمنافع المادية ، على المبادىء والأخلاق شأن الأمم الأوربية الجاهلية ، فكانت هذه الاخلاق وهذه النفسية والتربية ، مانعاً من الجهاد في سبيل الله ، وإعلاء كلمته ، ومن تحمل المشاق ، وتجرع المرائر ، ومكابدة الأهوال والخسائر في سبيل المبدأ الصحيح ، والعقيدة السامية .

كان نتيجة هذا كله أن ظهر جيل في المسلمين ، متنور الذهن ولكن مظلم الروح ، أجوف القلب ، ضعيف اليقين ، قليل الدين قليل الصبر والجد ، ضعيف الارادة والخلق ، يبيع دينه بدنياه ، وآجله بعاجله ، ويبيع أمته وبلاده بمنافعه الشخصية ، وبجاه وعزة وهمية ، ضعيف الثقة بنفسه وأمته ، عظيم الاتكال ، كثير الاستناد إلى غيره :

(وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ، وإن يقولوا تسمع لقولهم ، كأنهم خُشُبٌ مُسَنَّدَة ، يحسبون كل صيحة عليهم) .

هؤلاء هم الذين نشروا في المسلمين الجبن والوهن ، وصرفوا المسلمين عن الاتكال على الله ، ثم الاعتماد على أنفسهم إلى الاعتماد على غيرهم ، والتكفف لديهم ، والالتجاء في مواقع الخطر اليهم ، وأطفئوا في قلوبهم شعلة الجهاد في سبيل الله ، والحميـة للدين ، وابدلوها بالوطنية العليلة ، والجنسية التاعسة ، وأبدلوا جنونها الذي بعث الحكمـة من مرقدها ، وأطلق العقل من إساره ، والذي تمكن مما لم يتمكن منه العقل والعلم في آلاف السنين ، أبدلوا هذا الجنون الحكيم ، بعقل ناقص عليل ، لا يعرف الا الموانع والعراقيل .

وقد ظهر هذا التحول العظيم في العقيدة والنفسية والافلاس في الروح ، والايمان في شر مظاهره في حرب فلسطين ، فكان فضيحة للعالم العربي في القرن الرابع عشر الهجري ، كما كان

انكسار المسلمين وفشلهم الذريع امام الزحف التتاري فضيحة للعالم الاسلامي في القرن الثامن ، فقد اجتمعت سبع دول عربية ، لتحارب الصهيونية ، وتدافع عن وطن عربي اسلامي مقدس ، عن القبلة الاولى ، وعن المسجد الثالث الذي تُشَدّ اليـه الرحال ، وعن جزيرة العرب والاقطار العربية التي أصبحت مهـددة بالخطر الصهيوني ، فكانت حرب فلسطين دفاعاً عن حياة وشرفٍ ، وعن دين وعقيدة . وكان العالم العربي بأسره ازاء دويلة صغيرة لم تستقر بعد ، واتجهت الانظار الى مسرح فلسطين ، وانتظر الناس معركة مثل معركة اليرموك ، او وقعة حطين . ولماذا لا ينتظرونهـا ، والأمة هي الأمة ، والعقيدة هي العقيدة ، مع زيادة فائقة في العدد والعُدَد ، فلماذا لا ينتصر العرب وهم عالم ؟ ولماذا لا يقضون على عدوهم وهو حفنة من المشردين ؟

ولكنهم نسوا مافعلت الأيام ، وما فعلت التربيـة وما فعلت الدول والزعامة السياسية وما فعلت المادية بالامة العربية في هذا العصر ، لقد تقدم العرب الى معركة اليرموك حقاً ، ولكن بغير الايمان الذي تقدم به أسلافهم الى هذه المعركة في العصر الأول .

لقـد تقدموا إلى وقعة كانت وقعة حاسمة كحطين ـ لو ظفر العرب ـ ولكنهم تقدموا بغير الروح التي تقدم بها صلاح الدين وجنده المؤمن المجاهد : تقدموا بقلوب خاوية تكره الموت ، وتحب

الحياة ، واهواء متشتتة ، وكلمة متفرقة ، يريدون أن يربحوا النصر ولا يخسروا شيئاً ، وان يحافظوا على شرفهم ، ولا يخاطروا بشيء كلٌّ يعتقد أن غيره هو المسؤول عن الحرب ، وعن الغلبة والهزيمة ؛ ثم هم يقاتلون وحبلهم في يد غيرهم ، اذا أرخى قليلاً تقدموا ، وإذا جره تأخروا ، واذا قال : حاربوا ، حاربوا ، وإذا قيل : اصطلحوا ، اصطلحوا ، وما هكذا يكتسب الظفر ، ويقهر العدو :

اوردها سعد وسعد مشتمل   ماهكذا ياسعد تورد الابل

وبقي العالم متطلعاً الى ما قرأه في تاريخ الجهاد الاسلامي من روائع الايمان ، وخوارق الشجاعة والصبر ، والاستهانة بالحياة ، والبسالة والبطولة والاستقبال للموت ، والتمني للشهادة ، وحسن النظام ، وروح الاطاعة والايثار ، فلم ير من ذلك شيئاً ، الا لمعات واشراقات للايمان ، كانت تظهر من بعض المتطوعين في حرب فلسطين والاخوان المجاهدين ، تجندوا وتطوعوا للحرب بدافع الايمان ، والدفاع عن الاسلام ؛ وحملتهم الحمية الدينية على المغامرة ودفعتهم الى ميدان الحرب ، فشرفوا الدين ، وارهبوا القلوب ، واعادوا التاريخ القديم ، وبرهنوا على أن الايمان لا يزال المنبع الفياض للقوة والنظام ، وان عنده من القوة والنفوذ والتنظيم وروح المقاومة والجهاد ، ما ليس عند الدول الكبيرة المنظمة .

لقد ثبت مما ذكرناه في هذا الكتاب ، وما سردناه من الامثلة

والاخبار ، وشهادات التاريخ ، ومشاهدات هذا العصر — وما حرب فلسطين منا ببعيد — أن المد والجزر في تاريخ الاسلام ، وأحوال المسلمين ، تابعان للمد والجزر في الايمان ، وقوة معنوياتهم التي تنبثق من الدين ، وان منبع قوة هذه الامة في باطنها وهو القلب والروح ، فاذا عمر القلب بالايمان بالله ورسوله واليوم الآخر ، وزكت الروح بتعاليم الدين والاخلاق الاسلامية . وجاش الصدر بالحمية الدينية جيشان المرجل ، وأخذ المسلمون عدتهم من القوة المادية ، واعدوا للعدو ما استطاعوا ، وادركوا ماعليه العالم من جور وظلم ، ومن جهالة وسفاهة ، وضلال في الدين والدنيا وعلموا أن الزمان قد استدار كهيئته يوم جاء الاسلام ، والعالم قد عاد جاهلياً كما بدأ « ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس » فأشفقوا عليه ، ورأوا كأن العالم في حريق ، ولا ماء إلا عندهم فسعوا به ، يطفئون النار التي عمت الدنيا ، ونسوا في سبيل ذلك لذاتهم ، وتكدر عيشهم ، وطار نومهم ، وجن جنونهم ، فعند ذلك يتحولون قوة خارقة للعادة ، لا يفلها العالم ، ولو سعى بأسره وجميع شعوبه وجنوده ودوله ، ويصيرون قضاء الله الغالب ، وقدره المحتوم ، وكلمته العليا ، « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ، إنهم لهم المنصورون ، وإن جندنا لهم الغالبون » « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الاعلون ان كنتم مؤمنين » .

الفهرس

المقدمة ٣

معقل الانسانية ٥

المد والجزر في تاريخ الاسلام ٢٦